عصام الزيات

رواية

الكلب الذي رأى قوس قزح

دار دَوِّن

الكلبُ الذي رأى قَوْسَ قُزَحَ

عصام الزيات: الكلبُ الذي رأى قَوْسَ قُزَحَ، رواية

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٤

رقم الإيداع: ٢٠٢٣\٢٥٦٨٣ - الترقيم الدولي: ٠-٣٨٢-٨٠٦-٩٧٧-٩٧٨

جَميـعُ حُـقـــوقِ الطَبْـعِ والنَّشرِ محْـــفُوظةٌ للناشِرْ
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة
بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

إن الآراء الـــواردة فـــي هـــذا الكتـــاب
لا تُعبـــر عـــن رؤيـــة الناشـــر بالضـــرورة
وإنمـــا تعبـــر عـــن رؤيـــة الكـــاتب.
© دار دَوِّنْ
عضو اتحاد الناشرين المصريين.
عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر
Mob +2 - 01020220053
info@dardawen.com
www.Dardawen.com

عصام الزيات

الكلبُ الذي رأى قَوْسَ قُزَحَ

رواية

عربات الإسعاف مُكدسة أمام بوابةِ المستشفى. سيارات الأمن المركزي تقف على الجهة المقابلة من الطريق. كاميرات القنوات التلفزيونية أُبعدت عن البوابة بأيادي أفراد الأمن المُتشابكة.

وسط الجموع الداخلة والخارجة يقفُ السيدُ. عينه شِبه مغلقة يُصارعها النوم. تنحَّى من مركز البوابة إلى الرصيف الجانبي ليحتمي من المطر. ينظر إلى الشُّرفة الثالثة في الدور الثاني، هناك حدَث كل شيء.

لم يبالِ أفراد الأمن بإبعاده؛ لأنه لم يتضح لهم لأي جهة يتبع. ملابسه المغسولة والمكوية توحي بأنه غنيٌّ وذو شأن. عينه الشاردة والشنطة البلاستيكية التي يحملها تُخبر بأنه كان مريضًا هنا، أو له قريبٌ ضمن الضحايا.

الأطباء والتمريض وعمال المستشفى تتلاحم خطواتهم جميعًا لإخراج مَن يمكن إخراجه من المرضى، ونقل مَن كانت حالتهم خطرة إلى الأدوار السُّفلية ليكون الوصول إليهم أسرع.

من فتحةٍ في بوابة المستشفى لمح خلود، ابتسمت له ابتسامتها الودود ولوّحت له مُودِّعة، لم يتحرك فتقدَّمت نحوه قائلةً: امش من هنا . ابتسم لها، ولم يرد.

ربتت على كتفه، قائلةً: كانت ليلة صعبة أنا أعرف. لكنها مرّت، وذِكراها ستتلاشى مع الوقت .

عودها أخضر وعُمرها أصغر من أن تكون صاحبة حِكمة في الحياة؛ نحيلة الجسم عسلية العينين، ترتدي ملابسَ بيضاء باستمرار لاقتناعها بأنها ملاك رحمة، فعليها دائمًا أن تبدو كالملائكة. كرَّرت كلامها: كل شيء سيمرُّ، الوقت يخفِّف تأثير كل شيء، القليل من الراحة وبعض الهدوء ونبدأ من جديد . قالت بابتسامة: انظر إلى ملابسك؛ دورة غسيل ٤٠ دقيقة، ومكواة نصف عمر أعادوها لحالتها الأولى .

لم ينطق، ابتسم وربت على كتفها هو هذه المرة. فهم أنها تواسي نفسها؛ ابنتها المتوفاة منذ شهرين جعلتها وعاءً يَصب فيه الجميع ما يحفظونه عن القَدَر وعلاج الزمن لكل شيء. صغيرة يا خلود على الحِكمة، لكن الزمن لا يرحم. قالها في رأسه ثم تحرك خطوتين ليقنعها بأنه ينصرف كي ترجع لعملها.

لوحّا لتوديع بعضهما، ثوان وعاد السيد لمكانه بجوار بوابة المستشفى.

رؤيته لخلود تحمِل أنابيب الأكسجين هائلة الوزن جعَلته يُدرك أن المسافة بين ما حدَث أمس وبين اللحظة الحالية سنوات طويلة لا مجرد ساعات ليلٍ.

منذ بضع ساعات كانت خلود متكوِّرةً في رُكن العنبر تبكي، تحتضن قدميها كالجنين المرعوب، يهرول الجميع من حولها وهي غارقة في رُعبها. شهَقات المرضَى تُصِم الآذان، كان الموت ينتزع أرواح المستشفى كلها دفعة واحدة. الشهقات تكتّلت فباتت لحنًا جنائزيًّا مقبضًا. رءوس المرضى جميعًا في كيس بلاستيكي كبير يَضِيق عليهم تِباعًا.

وخلود أضعف من المشهد؛ بنتها التي ماتت غرَقًا ربما تمثَّلت أمامها. لم يَلفِظها البحر لها بعدُ، لكنها ربما وجدت في شهَقَات الموتى المُحتملين حولها صورةً لشهَقات ابنتها وهي تُصارع الماء الذي يريد احتلالَ رِئتها.

شابٌّ يهرول للدخول إلى المستشفى دفع السيد فصدمه بالجدار؛ لم يغضب السيد، لابد أنه له أمًّا أو أبًا بالأعلى، يهرول علَّه يصِل إلى الإجابة أسرع، حيٌّ أم مات مختنقًا.

لو كنتُ مكانه لمشيتُ ببطءٍ، هو حيٌّ حتى أعرف أنه ميت .

ابتسم السيد، فتلك بقايا الفلسفة التي كان يُعلِّمها للطلبة في المدرسة منذ عشرين عامًا. ظن أنه نسِي تلك الفترة، لكنه اكتشف أنها قابِعة في خلفية ذاكِرته، تنتظر أصعب مواقف حياته لتظهر.

عاد الشابُّ المُهرول سريعًا، وجَد مريضه ميتًا بالتأكيد. وقَف جوارَ السيد ليحتمي من رذاذ المطر المتساقط.

يُشبه خميس، أول ما تبادر لذهن السيد؛ له شعر مجعَّد كشعره، وقسمات وجهه كأنها خميس مطروحًا منه عشرين عامًا من الشقاء. أخرَج الشابُّ هاتفه وهتف في لحظة: مات يا أمّا .

رمى الشاب ظهره على الجدار، فأسنده السيد. افترشا الأرض. استمر الشاب يبكي دون أن يغلق الهاتف. لمح السيد اسم الشاب في بطاقة تعريف يرتديها في عنقه: أحمد خميس علي، فني صيانة في شركة النور للأجهزة الكهربائية.

صدَق حَدس السيد، الشاب هو خميس منذ عشرين عامًا. إلا أن خميس كان أطول، وجسمه أشد نحافة؛ ذراعاه طويلتان، والتقوُّس في ظهره يجعل ذراعيه تقتربان من الأرض فتظهران كأنهما أطول من أي يدٍ طبيعية، لسانه فيه تلعثم خفيفٌ، لكنه يناسب شخصية خميس المَرحة.

- أنت ابن خميس؟

التفت إليه الفتى، فقد كان في ذِكر اسم أبيه بعثًا له من الموت، أجابه متحفزًا: نعم، ابنه.

لحظات من الصمت ينتظر فيها الشاب تفسيرًا عن سبب معرفة الرجل بأبيه، أو قصةً عن لحظاته الأخيرة، أو وصية، لكن لا شيء، صمت.

نظر السيد نحو الشُّرفة الثالثة في الدور الثاني، حيث كان هو وخميس. كأنما يشاوره فيما سيقول لابنه، السيد الذي انسحب من الحياة كلها، وضع نفسه مرة أخرى في مركزها. لكن هذه المرة سيكون مركزًا لحياة شخصٍ آخر، وقصة سيتم تناقلها لأسبوع العزاء على الأقل، ثم يعاد تدويرها في النهاية كل عام في سنوية الوفاة. سيحكيها لأمه بالطبع، وتحكيها أمه للنساء الجالسات بجوارها في العزاء. فضول المعزِّين عن تفاصيل الوفاة تضع الميت في دور البطولة، سيدعون له بالطبع ويواسون أبناءه، لكن القصة، المهم القصة.

السيد كان مطمئنًا أن الشاب سيحرِّر القصة في كل الأحوال، فحين نُعيد القصَّ فإننا نحكي نسختنا الخاصة من القصة. تلاشت القصة لحظة حدوثها، وكل ما يحدث بعد ذلك ليس إلا نُسخًا شخصيةً للقصة الحقيقية، ولا نسخة منها تكون حقيقية. حتى مقاطع كاميرات المراقبة التي التقطت لمحات مما حدَث لا تَنقُل القصة الحقيقية، فزاوية التصوير تقتل الحكاية الأصلية وتخلق حكاية مختلفة. طمأن السيد نفسه بتلك الجمل الفلسفية، ثم تنحنح:

أبوك لأنه صياد قديم، سَمعُه حديد وسُرعته شديدة.

ضيّق أحمد عينه متعجبًا مما يسمع، لكن لم يلحظ السيد هذا التعجب واستمر في قصته:

التقط أولى الشَّهقات. قام ففتح باب الغرفة، فوجد المستشفى هائجةً، ولمح سيدة في الغرفة المقابلة تُجاهد لتلتقط أنفاسها، فحمل أسطوانة الأكسجين نصف الممتلئة خاصته ووضَعها على فمِها. حاولتُ منعه لكنه لم يمتنع، ولم يقتنع أنه بحاجةٍ للأكسجين مثلها تمامًا. وضع الأُسطوانة بجوارها ثم عاد إلى غرفتنا، ورقد على سريره، دقائق وسَمعته يتلو الشهادتين ويوصيني بكم وأن أوصيك بأمك وإخوتك، ثم كرَّر الشهادتين ومات.

هدأ الشابُّ وبدأت ملامحه تسترد لونها الطبيعي بلا احتقان الدموع أو علامات التعجب. عينُ السيد تُلاحظ الشاب، يتعجب من تلك السكينة بعد معرفة القصة، ربما لأننا نرى الموت نهاية كل حيٍّ، ونعلم أن العالم الآخر هو

المهم، فحين اطمأن الفتى على أبيه سكن خاطره. لم يسمح له الفتى بأن يغرق في تلك الأفكار أكثرَ، فصافحه وحضَنه باكيًا.

وصلت أمُّ الفتى وإخوته؛ تراكموا جميعًا في توك توك صغير؛ يأتون لاصطحاب جثمان في توك توك. صدّق السيد كلام خميس عن حالتهم المادية، أنه كان سيكون عبئًا عليهم لو خرج من المستشفى هو وتليفه الدائم في الرئة الذي يحتاج لقناع أكسجين باستمرار، وأدوية متواصلة، وعناية كاملة بجسده كي لا يُصاب بالعدوى أو قُرح الفراش.

فاختار خميس أقصر الطرق ليعتني هو بهم، فقد انتحر.

مال السيد برأسه على جدار المستشفى، وفرد رجليه وهو يراقب الشاب يروي الحكاية لأمه.

بعكازه ذي الطرف المَعدِني استطاع خميس أن يصل إلى درفة الشباك الموجود على رأس السيد. حرّك إحدى الدرف للخلف قليلًا كي تُتيح له أكبر رؤية للقمر، طوال شهرين لم يتبادل السيد وخميس كلمة.

أمارات الثراء بادية على السيد، كانت باهتةً لكنها كافية كي لا يتشجع خميس على بدء الحديث. كان السيد زاهدًا في الحديث، يضعون له الطعام فيأكل، يرفعونه من على السرير لتغيير الملاءة فيقوم، ثم تشير له الممرضة أنها انتهت فيعود لمكانه، يقوم للحمام فيطرق بابه، إذا سمع نحنحة أحد بالداخل عاد لسريره، وقام بعد فترةٍ آملًا أن يجد الحمام فارغًا.

لم يكن السيد ليحتمل أن يُصرّح له فرد آخر بأنه لا يريده في حياته، خصوصًا خميس؛ لأن غرفته هي الغرفة الوحيدة في عنبر الرجال التي بها شباك، وحالة خميس والسيد تسمح لهما بمشاركة غرفة واحدة دون وجود احتمالية للعدوى.

لا ينام السيد إلا ويده تمسك الشباك؛ عادة قديمة أكسبتها له أمه. قبل أن يولدَ السيد وأخوه الأكبر، كان لهما أخٌ سيكون أكبرهما لو عاش. مات إثر سقوطه من على السرير. ورغم أن الأم تخلَّصت من السرير المَعدِني ذي القوائم النحاسية المرتفعة، واشترت سريرًا خشبيًّا قريبًا من الأرض، فإنها زرعت حلْقَة معدنية في شباك السرير كي يُمسكها السيد وأخوه أثناء نومهما. سرعان ما يغرقان في النوم فيتركانها، أو حين يطول عليهم الأرق يتركانها بسبب ألمِ مفاصلهما، لكن هكذا كانت الأم تُريد، وهكذا اقتنع الأب بزرع الحلقات في السرير، وهكذا التزم الأولاد.

يستغرق السيد قُرابةَ الساعة كي يدخل في النوم؛ لذا كان على خميس الانتظار، لم يرد أي محاولة لمنعه، فقراره قد حُسم.

اطمأن خميس أن قطعة البلاستر التي طلبها من الممرضة موجودة على الكومود. ابتسم حين تذكَّرها ترد على طلبه إياها قائلة: "رجال بشوارب يقف عليها الصقر ويُصابون باللوثة في مستشفيات العزل". ضحِك خميس لكلامها، لأول مرة يضحك لكلمة تقولها تلك الممرضة. قراره بالموت جعله متسامحًا مع الحياة، ومع كل ما يحدث. ربما يشعر أنه سيفتقد كل شيء بعد لحظات، أو أن عليه أن يحتمل القليل فحسب من كل ما يحيط به. في الحالتين رأى خط النهاية قد اقترب، فلا ضَيْرَ مِن قليل من الصبر والفرح.

منحها خميس لأول مرة تفسيرًا لما يطلب، دائمًا ما كان يتعامل معها بلغة الأوامر، فقال إن ساعة السيد لها عقارب تتحول للون الفسفوري بالظلام، ولأنه يرفع يده ليمسك الشباك فنُورُها يزعج عينه؛ لذا سيضعها على شاشة الساعة حين يغرق السيد في النوم.

نظرت نجلاء إلى السيد، كان مُعطيًا ظهره للاثنين ناظرًا للجدار؛ قالت: "بالتأكيد من أصل غنيٍّ؛ شعره الميّال للأصفر، وعينه الزرقاء يؤكدان ذلك، كما أنه لا ينطق إلا ليقول: شكرًا، وبعد إذنك. لكن سبحان من له الدوام، لا أحد يعرف كيف انتهى الأمر به في الزريبة معنا".

ضحك خميس للتشبيه، لولا أنه قرَّر أن يموت خفيفًا لقال لها العديد من التعليقات الساخرة حول الزريبة؛ فجسدُها في رأيه يُشبه البقرة، وأكل المستشفى يشبه علَف الحيوانات، ونظافة المستشفى ورائحتها والحياة فيها يُشبه الزرائب فعلًا. اكتفى خميس بابتسامة، ستفهم نجلاء لاحقًا أنها ابتسامة وداع. أغلقت زرَّ الكهرباء بعُنف، وصفَعت باب الغرفة وخرجت.

لحظات ودخلت العاملة لتغيِّر الحفاض لخميس؛ احتياجه الدائم للأكسجين اضطرهم لتلبيسه حفاضًا؛ كي لا يفصل الأكسجين في الدقائق المعدودة التي يستغرقها في الحمام. منذ أسبوعين وخميس يكره تلك اللحظة، ليس إحراجًا، فقد ضاع الإحراج منذ المرة الثالثة قبل شهر من تلك اللحظة، لكن الالتهابات في منطقة الحفاض تؤذيه. طلب من العاملة أن تختار له حفاضًا من نوع مختلف، قالت: "إن كل الحفاضات المجانية من هذا النوع". أشار تجاه السيد قائلًا: ضعي لي حفاضًا من حفاضاته، لم يعُد يحتاجُها. ابتسمت وهمست: وحياتك هو مثلك مجاني. لم يترك له أحد أي أموال، ولم يُعطنا رقم هاتف للتواصل مع أهله. أكملت العاملة أنه يجب أن يخرج منذ يومين، لكن الأطباء يقرِّرون تركه يومًا بعد يوم لربما يُعطيهم رقم أحد، أو يَحضُر له أحد من أهله، أو حتى يأتي المُسعف الذي أتى به سابقًا ليعرفوا من أين التقطه.

لم يُجرِ خميس هذا القدْر من الحديث مع العاملات والتمريض من قبل، كان يكرههم ويكرهونه. يمارسون عملهم في صمتٍ؛ لأنهم يعلمون أن لسانه السليط سيحوِّل أيَّ جُملة تُقال إلى أشواكٍ يغرسها في حلق من يقف معه.

تلك المحادثات جعلته يشعر بقليل من الندم على أنه لم يفتح حوارًا مع السيد طوال ٦٠ يومًا مضت. خبط خميس رأسه كأنما يعيد نفسه من أفكاره إلى الخُطة التي تنتظره. ولا يريد أن يكون الفضول هو السبب وراء تأخيرها.

بدأت قبضة السيد على الشباك ترتخي؛ يده تسقط تدريجيًّا نحو السرير،

شد الغطاء على رأسه ونام. لا ينام السيد إلا في ظلام دامس، لكن بعد وفاة أخيهما أصرت الأم أن يناما والأضواء مشتعلة كي تراهما كلما قامت لقضاء حاجتها ليلًا.

تغلَّب السيدُ وأخوه -بنصيحة من أبيهما- على هذا الأمرِ بتغطية رأسيهما بالغطاء تمامًا حتى يدخلا في النوم، لكن لم يتغلب السيد على شعوره بكراهية أخيه الذي لم يَرَياه، لكنّ حياتهما تشكَّلت كرد فعل على موته.

اطمأن خميس لنوم السيد، راقب عقارب ساعته الفسفورية حتى تحركت مسافة كبيرة، فتأكد أنه لا بد قد نام.

استدار خميس على جنبه كي يواجه القمر، كان بدرًا كاملًا.

قضى السيد ٤ سنوات في كلية الآداب جامعة القاهرة. قطار الثانية والنصف هو الشبح الذي ظل يطارده طوال سنوات الدراسة، والعمل لاحقًا. يُحدد السيد جدوَى محاضراته من عدمها قياسًا على قطار الثانية والنصف. هل تستحق تفويت قطار الواحدة والنصف، الممتلئ، والوقوع في قطار الثانية والنصف شديد الامتلاء. طوال سنوات الدراسة لم تنجح محاضرة في التفوق على هذا المِقياس، دائمًا ما يفوز قطار الواحدة والنصف. إلا في مرات قليلة اضطر السيد لركوب قطار الثانية والنصف نتيجة تأخر المواصلات من الجامعة للمحطة، أو عُطل في المترو. مرة واحدة اختار السيد تفويت قطار الواحدة والنصف، بعد التخرّج بعام.

دعاه زميله للاحتفال بآخر امتحان في الدراسات العليا، فاعتذر السيد في البداية، لكن عبدالرحمن أصر أن يشكره على الملخَّصات التي قدمها له السيد قبل شهرين حين لجأ إليه يشكو صعوبة المادة، لولاها لَمَا تجاوز الامتحانات. كهديةٍ إضافية حجز تذكرتين في قطار ٨.١٥ المُكيف لطنطا، واحدة للسيد، والأخرى تستمر للإسكندرية بلده.

في القطار اكتشف الاثنان أن التذاكر ليست متجاورة، قرَّرا الجلوس ريثما ينتهي الركاب من القعود، ثم يرتبان المقعدين. حسناء ذات شعر أسود مُرسل جلست بجوار عبدالرحمن؛ فأدرك السيد أن زميله لن يبادل مكانه أبدًا، واستسلم للجلوس في مكانه، لم يكن الأمر عسيرًا. فتلك هي مرته الأولى في قطار مكيف.

أخذ يحرك قدمه بحرية، يمشي في الطرقة ذهابًا وإيابًا. كان يُدرك أنها قد تكون المرة الأخيرة له في قطار كهذا، فأراد أن يقتنص التجربة كاملة. عيون المسافرين المعتادين على القطار بدأت تلاحقه، فجلس مكانه.

التقطت أذنه كلمة منشأة الأوقاف من لسان الجالس بجواره، كان يتحدث عبْرَ الهاتف، لم يسمع السيد ما قبل كلمة منشأة الأوقاف، لكنه استطاع جمع ما يكفي من الكلمات التي تلتها. المتحدِّث كان يُكرر كل ما يُقال له من الطرف الآخر، ويُلحقه بكلمة تمام .. رضا الأهالي ضروري، تمام .. خلال شهور يبدأ المشروع، تمام .. لا نريد لفت نظر أي جهة، تمام .

انشغل السيد بالكلمات عن كل ما حوله، فاستدار للجالس يسأله عما سمعه. رمقه الرجل ذو البدلة السوداء بنظرة شكٍّ واحتقار. لكن شَعْر السيد

الكُستنائي، وعينيه الزرقاوين، وبنيته القوية، جعلته يظن أنه من أصل ثري، فربما يكون مستثمرًا محتملًا. الرجل معذور، فقد أنفق السيد مرتَّب شهره الأول على شراء قميصين وبنطلون يرتديهما بالتبادل حين يعود للبلد وحين يرحل منها.

لتنطلي على والديه حيلة أنه مرفه في القاهرة. كان ذلك دافعه في البداية، لكن حين بدأ العمل كفتًى يقف في صالة مطعم، أصبح أكثر حرصًا على أن يبدو شديد الأناقة حين يكون خارج العمل. يريد أن يقول للجميع إنه هنا بالخطأ، نكبة مؤقتة في مسيرة رجل مهمٍّ. اعتدل الرجل وحكي له عن مشروع كبير سيَجْري تنفيذه على أرض قرية بالقُرب من طنطا. المشروع سيضم مجمَّعًا للبنوك، وسوقًا تجاريًّا ضخمًا، ومجموعة من النوادي الرياضية. لكن لأن الأرض التي سيُبنَى عليها المشروع زراعية كلها، يجب أن يتم بيع الأراضي بالتراضي؛ لأنه سيتم رفع قضايا تبوير على الفلاحين، وعليهم أن يشهدوا أنها أرض بور منذ زمن، ولهذا قرَّر المستثمرون استغلالها.

ابتسم الرجل الأنيق للسيد مشيرًا إلى أن أعداء النجاح في كل مكان؛ لذا يجب أن يكون كل شيء قانونيًّا. تنحنح وقال: لهذا يجب أن يتم كل شيء من خلال الخبراء، قالها وهو يُعطيه بطاقة عليها اسمه وأرقامه. نصحه أن المشروع سيكون مربحًا للجميع، وإذا كان يريد أن يربح منه، فعليه أن يقرِّر من الآن. قال جُملته الأخيرة بلغة إعلانية وهو يشير إلى البطاقة التي سلّمها للسيد.

شكره السيد، اعتدل في كُرسيِّه، وأسند رأسه للخلف، مغمضًا عينه، يفكر في القدر الذي ساقه إلى هذا القطار، وهذا الكرسي، كي يقتنص هذه المعلومة: فما دورك يا أبو السِّيد في كل هذا؟ .

اعتذر لربك في الصباح، واشهد معي على معاناتي. رأيتك ٦٠ مرة هنا، وكنت تراني كل يوم طوال ٦٥ عامًا. تصادقنا في أيام خروجي للصيد بالمركب. لا بد أنك تذكُر كيف كنت أحبس أنفاسي تحت الماء لدقائق طويلة، حتى لقَّبوني بخميس القرموط. والآن يقولون لي إني سأحتاج لأجهزة تضخُّ لي الهواء مدى الحياة، أنا لا أستطيع تحمُّل ذلك، وأسرتي لا تستطيع تحمل ذلك.

لن أقدر على العمل، سأصبح بهيمة تأكل وتشرب، لكن لا حليب ولا لحم. فما فائدتي؟ سأموت في كل الأحوال، الآن، غدًا، بعد عشرين عامًا إضافية، سأموت. سيحزنون عليَّ اليوم مثل الغد مثل العام القادم. شيء سيحدث فليحدث الآن، وهم يمتلكون قدرًا من المال، ويشكرون لي أني أُجازف رغم جسمي المنهك بالصيد لأعود لهم بما يجود به البحر.

لم أترك لهم الكثير يواجهون به الزمن، لكن على الأقل الولد يمتلك صنعة وتزوّج، والبنات جهازهم موجود. وأنا لن أترك لهم ما تركته فحسب، بل أترك لهم ما كنت سأحرقه من طاقاتهم وأموالهم لو خرجت لهم.

رفع خميس عُكازه ليغلق درفة الشباك مرة أخرى لكنها وقفت في المنتصف، لم تنغلق وصارت أبعد من أن تطولها عصاه. وضع عكازه واستدار بعيدًا عن القمر لينام على ظهره. وجهه هادئ أكثر مما يجب. لكن مصافحة الموت لم تكن خارج حساباته أبدًا، الصياد لا يأمن البحر، يدخل فيه ولا يعرف هل سيعود أم لا. فكان الموت حاضرًا معه دائمًا، فقط كان يدعو ألّا يموت حتى يرجع لعائلته برزق اليوم.

ظل كل يوم طوال ٥٣ عامًا يُهادن الموت، تأجيل لحين العودة بالصيد. تعلّم تلك المهادنة من أبيه حين اصطحبه للصيد وهو ابن ١٢ عامًا، حين رسب في الابتدائية. ومع كل موجة ترتفع يصيح أبو خميس لأجل خاطر هذا الغلبان. وحين تهدأ الموجة يخبره أبوه أنه حجاب حظه، لكن بعد بضع سنوات في البحر أدرك خميس أن أباه كان يعقد به المهادنة مع الموت، يستعطفه بصورة خميس ذي الشعر الأكرت، والجسد النحيل.

بدأ خميس يفقد سمعه تدريجيًّا فأصبح وجوده في مراكب الصيادين خطرًا عليه وعلى الآخرين. لا يسمع صيحات التحذير، ولا يتواصل مع باقي الطاقم، فبات برَكَة المركب. يدفع له الصيادون أُجرة يومه دون انتظار عمل منه.

حينها أدرك خميس أنه لا مبرر له بعد الآن لمهادنة الموت. لكن علم بحسِّ الصياد أنه لن يموت إذا انتظر الموت. سيُعاقبه الموت على جعله ينتظر طوال السنوات الماضية، بأن يذيق خميس مرارة الانتظار كذلك. وحين دخل المستشفى وعلم بدمار جهازه التنفسي فهم رسالة الموت له.

صفَع خميس رأسه، يفعل ذلك ليتأكد من يقظته كي لا ينام وهو في وسط البحر، علّمه إياها أبوه، فظلت لازمة له في كل مجلس وكل مكان. يُعيد نفسه بتلك الصفعة من مكان رحل له بعقله للمكان الذي يتواجد فيه جسده.

أفكاره دائمًا كانت محل سخرية زملائه الصيادين، كان فيلسوفًا دون أن يتعلم القراءة والكتابة. يسرح في عالم من التساؤلات دون أن يعرف من أين داهمته تلك الأسئلة، ولا مِن أين اقتبس تلك الكلمات. كان التفسير الأقرب للجميع أنه ملبوس، لكن من يلبسه هو جن طيب، جن أفكار فقط، لذا لم يخافوا منه، وزوجّوه وائتمنوه على مراكبهم.

غطت سحابة البدر، فانقطع نوره من الغرفة، فانتبهت عين خميس، عاد لواقعه، وقرَّر البَدء في التنفيذ، فليست الأفكار إلا محاولة لتأجيل الأفعال.

أمسك خميس قطعة البلاستر الطبي التي طلبها من الممرضة ووضعها على فمه بعد أن أنزل قناع الأكسجين. ٣ دقائق يا خميس، إياك أن تخلعه أكثر من ٣ دقائق، هكذا تُنبِّه نجلاء كلما دخلت عليه الغرفة. بدا الأمر بسيطًا له، ٣ دقائق فحسب وأكون غير موجود. فكَّر في وضع اللاصق كي يمنع نفسه من الصُّراخ، ويحبس الهواء كي ينتهي الأمر أسرع.

وضع اللاصق وضغط عليه بيده اليمنى كي يضمن التصاقه تمامًا. الظلام المتراكم على صدر خميس يعلو ويهبط مع صدره المتلهِّف للهواء؛ ذرات الهواء تتصارع على الوجه العلوي لقطعة اللاصق تريد اختراقها، شهيق خميس يوشك أن يثقب اللاصق، ومع اندفاع الهواء من الأعلى تكوّن تجويف صغير في وسط اللاصق بين شفتيه. حاولت يده اليمنى أن تنزع اللاصق، المخُّ أصابه الجنون فأرسل إشاراته للجسم بالكامل أن ينتفض.

بدأ الأمر يبدو طويلًا، الدقائق أصبحت سنوات طويلة. بعنف استدار خميس على سريره، جعل رأسه مدفونًا في المخدة. ورفع جذعه للأعلى ليضغط بوزنه كله على شفتيه، يريد ألّا يترك فرصة للتراجع. جسده أنحله الصيد والمرض، لكن هذا الضغط على شفتيه كان قويًّا. في لحظة سقط جسد خميس مرتطمًا بالسرير.

انتفض السيد من نومه معتدلًا فاصطدمت رأسه بدرفة الشباك.

رجل أصلع متوسط الطول، إحدى عينيه بها رمَد، ينظر إلى امرأة قصيرة القوام، مستديرة الوجه، يبحث عندها عن إجابة لطلبات ابنها. الاثنان حائران؛ الابن يطلب فجأة كل ذهب الأم، ويحاول إقناع الأب أن يبيع ثمانية قراريط هي كل ما يملك من الدنيا. الصدمة أنه يريد التعويض الذي تقاضاه الأبوان من وزارة الدفاع حين مات ابنهما الأكبر في الجيش.

منذ تلقَّت صفية تلك الأموال وهي لا تعرف ماذا تفعل بها، لم يُطاوعها قلبها في استلامها من الأصل، لكن استلام التعويض ارتبط مع استلام مُتعلقات ابنها الشخصية، فاضطرت لأخذ المال. لم تصرفه، لأنه ثمن حياة ابنها.

كلما همّت باستخدام ورقة نقدية منها لشيء من مصاريف البيت تتخيل أنها تشتري ببعض من دماء ابنها صابونة غسيل أو سلك مواعين، فترد النقود مرعوبة وتستغفر. ولم تستطع أن تتخلص منها، كانت تريد حرقها، لكن خوفها من الحُرْمانية منَعها. فقرَّرت أن تتعامل معها كما تتعامل مع ملابس عليٍّ، أشياء من رِيحة الشهيد.

الآن تكتشف أن الأوراق التي ترقُد بجوار ملابس عليٍّ أصبحت نقودًا ويطلبها الأخ بجرأة.

عزَّت لا يعرف ما يقول، كل أمواله في النهاية للسيد، لكن بيع الأرض له أسبابه. لا يمانع في بيعها أبدًا، لو شعَر أن السيد بحاجة إليها لزواجه، أو لأسبابٍ يقتنع بها أبو السِّيد، لكن فجأة يريد الشاب أن يتركهما على الحديدة من أجل كلمة سَمِعها في قطار.

يحرك السيد ركبته ويخبط عليها بكفه؛ ينتظر ردًّا سريعًا، هو لم يصبر حتى أن يُغير ملابس السفر، ولا أن يتناول العشاء معهما، فبمجرد أن فتح خَوْخَة الباب الكبير، جذَب أمه وأباه وبدأ يحكي لهما، ويعدهما أن الأموال ستُرد إليهما بعد عدة شهور أضعافًا.

قطعت صفية الصمت بدعوتهم لتناول الطعام، الصباح رباح. استبشر السيد، فرهانه من الأصل كان على عاطفة أمه؛ لأنه الابن الوحيد الحيّ، بعد رضيع مات وشابٍّ شهيد، فلا بد أنهما سيستجيبان.

في الصباح نادت صفية على السيد ليتحدَّث معهما. ذهبت إلى سريره فلم تجده، فتحت خَوخَة الباب فوجدته واقفًا أمام الدار. لم ينم السيد ليلته. خرج يتأمل البيت من بعيد، ويتخيل ذلك الطوب اللبن وقد حلّ محله الطوب

الأحمر، والباب الخشبي الكبير المزوَّد بكُوَّة في منتصفه تُسمى خَوْخة، وقد صار بوابة مَعدِنية ضخمة، تفتح على سلالم مغطاة بالرخام الأبيض. ويختفي البيت المكون من طابقين؛ غرفة معيشة ووسط الدار، وزريبة، في الدور الأرضي، وعددًا من الغرف المنفصلة تُسمَّى، مقاعِدَ، كان الأب قد بنى ثلاثة منها ليتزوج فيها الإخوة. ويتحول لبناء حديث يُغطى مِن واجهته بالحجر الفِرْعوني.

سيبقى السيد محبًّا للحجر الفرعوني بصفة خاصة، ويحب كل ما يتشكل من الأحجار والأسمنت والجبس. لولا حياته في الطين في الحقل والمنزل لأحبّه، لكنه كرِه الطين لارتباطه بالفقر. أما المواد الأخرى فيحبها لأنه يكره الزمن. يرى فيها الإرادة اللازمة للوقوف في وجه الزمن.

أما الواجهات الزجاجية والمصنوعة من الألومنيوم فيكرهها؛ يراها تغزو كل شيء حوله لكنها في رأيه علامة الاستعجال وعدم الإتقان. يريد الناس شيئًا سريعًا يسترون به المبنى، فيلجأون للزجاج والألومنيوم. لكنه حين يسقط يتعرَّى المبنى قبيحًا مؤذيًا للعين. أما النقاشة بالأسمنت والجبس والدهانات فتمنح المبنى ملابس ساترة لا تكشف عورته حتى وإن اهترأت بفعل عوامل الزمن.

قطع نداءُ أمِّه خيالاته، ارتمي السيد على كرسي الأنتريه المقابل لأبيه. فوجئ أن مِقعدته لامست أرض البيت الترابية. خيالاته جعلته يغفل أن أنتريه بيته ليس له علاقة بالأنتريهات إلا الاسم. لكن الواقع أنه خشب مملوء بالسوس، يتساقط منه مسحوق أصفر كأنه فضلات السوس بعد أن حلّل الخشب وهضمه؛ الإسفنج في قاعدة الكراسي يُشبه ورقة رقيقة في دفتر حضور وانصراف حكومي.

نظر السيد إلى يده ينفضُها من مسحوق الخشب، رفع عينه ليجد يد والده ممدودة بعدة قطع ذهبية هي كل ما تملك الأم، وكيس أسود يحوي فلوس تعويض أخيه. أخبره أن خاله يريد شراء الأرض منذ زمن: اتفقت معه في صلاة الفجر اليوم، والثمن سيكون جاهزًا بعد صلاة الظهر .

الفرحة على وجه السيد لم تكن ملائمة لملامح الحُزن والضياع على وجه العجوزين. لكنه أقنع نفسه بأنه يعلم ما لا يعلمان، وستصبح فرحتهما أضعافًا حين يتحقق ما في مُخيِّلته.

شدة الارتطام أضاءت أدوار المستشفى الخمسة، مضت الممرضات متثاقلات إلى غرفة خميس.

قالت نجلاء لزميلتها وهي تقوم من فراشها: سأقتل تلك القطة . وطمأنت خلودَ التي أرعبها الصوت قائلة: لابد أن القطة السوداء قد حركت قطعة الخشب التي تسند قاعدة أسطوانة الأكسجين، فسقطت الأسطوانة على الأرض .

فتحت نجلاء الغرفة، وضربت زرَّ النور بعنف: الأسطوانة في مكانها، الحمد لله .

لمحت السيدَ جالسًا وقطرات الدَّمِ تنزف من رأسه؛ فتوجهت نحوه لتسأله عما حدث، نادت للعاملة أن تُحضِر قطنًا ومطهرًا. كان السيد مرعوبًا، ينظر نحو خميس، لا يُدرك وجود الممرضة أصلًا. حاولت نجلاء تهدئته بأن الأمور ستكون بخيرٍ، فهي مجرد كدمة بسيطة. السيد لم يكن معها، بل عينه على خميس.

فجأة تحركت عينه نحو أرض الغرفة، فنظرت نجلاء حيث ينظر، رأت قناع الأكسجين الخاص بخميس مُلقًى على الأرض، وخميس مقلوب على وجهه. صرخت نجلاء، وارتد جسدها بجوار السيد على السرير. دخلت العاملة بالشاش والمطهر، فرأت الاثنين مفتوحي الأعين، فثبتت مكانها.

صوت الارتطام أيقظ رئيسة التمريض سامية، وأخرجها من غرفتها في الدور الأول. عرفت أن مصدر الصوت لابد أنه غرفة خميس، الواقعة فوق غرفتها، فصَعدت إليها.

دخلت سامية الغرفة، ولأنها تعمل منذ ٢٥ عامًا كممرضة، فبرودها الذي اكتسبته عبر السنين جعلها تدرك الأمر سريعًا. رجعت خُطوتين نحو السُّلم لتُعلن للجميع أن القِطط حرَّكت الأسطوانة، ولا شيء يدعو للقلق. ظل التمريض الواقف على السلالم كما هو؛ فصرخت فيهم: كل شيء بخير، اتخمدوا .

انطفأت أنوار المستشفى غرفة تلوَ الأخرى، وخلَد تمريضُ الأدوار تِباعًا للنوم. بقي ثلاثة أشخاص فقط متيقظين، وجُثَّة.

جرّت سامية العاملة للخارج، خطفت منها الشاش والقطن وقالت لها: كلامي معك لاحقًا. اقتربت سامية من الجسد المقلوب، أدارته على وجهه.

زرقة وجهه نتيجة الاختناق انتزعت منها شهقة أقوى من نجلاء، ولم يصدرْ من السيد شيء.

نزعت سامية اللاصق، وبقُطنة مبللة بالماء أزالت آثاره من على شفتَيه. وكتبت في تذكرته بضع كلمات، ثم التفتت للاثنين: حالته تدهورت فجأة، حاولنا التواصُل مع الطبيب فكتب تقريرًا بنقله للعناية المركزة في المستشفى المركزي. سأُرتِّب التقرير مع الطبيب كي يتم بوقت مبكر، ونسجِّل الوفاة بعد ساعتين من الآن .

نظرت لها نجلاء نظرة فارغة، لا يبدو أنها تراها أصلًا؛ نهرتها سامية وطالبتها بالانصراف، لم تتحرك نجلاء فشدتها سامية من ذراعها ووضعتها على باب الغرفة ثم أغلقت الباب وعادت للسيد؛ وقفت أمامه، ورفعت نقابها واقتربت منه كي يرى ملامحها الصارمة، ثم قالت بحزم في عينه مباشرة: ستنام، لم يحدث شيء، وسأعود بعد ساعتين لأُسجِّل وفاته، وسوف تُصدَم وقتها؛ لأن الطبيب سيكون معي .

لم يُجبها السيد، قرَّبت وجهها منه، وارتطم رذاذها بنظارته، وبدأت السُّحب تتكاثف على زجاجها نتيجة أنفاس سامية الساخنة. قالت: أنا لا أعرف ما وراءك، مُسعف مجهول ابتلانا بك، وحظُّك أن الدكتور مصطفى طيب ووافق على استقبالك بدون بطاقة أو أهل، لكن لا يهم، يمكن أن أقول إنك أنت من قتله، لو لم تنفِّذ ما أقول .

الكلمة أعادت السيد من شروده فقال: والله لم أقتله . أخيرًا طلع لك صوت يا أبو شكرًا، وبعد إذنك. استمرت في تهديدها قائلةً: أنا أقْدَم من مباني المستشفى نفسها، لن يُكذبني أحد ويُصدق شخصًا مجهولًا، ولن أخرج للمعاش بفضيحة أو بجزاء. سأقول إنه استفزك بتعليق سخيف، فقمت لتخنقه، والدليل أنه ضربك بعُكازه على رأسك .

سكت السيد، لم يرد أن يطيل الجدال معها، لم يرد وجودها في الغرفة، لم يرد وجوده في الغرفة، لم يرد أي شيء في هذه اللحظة.

هزَّ رأسه موافقًا، فقالت له: شاطر . ثم عدّلت الملاءة على جسد خميس، وقناع الأكسجين، وأغلقت مقبس الكهرباء بعنف، ورزعت الباب ثم انصرفت.

تكوّر السيد في الزاوية بين السرير والحائط؛ عينه معلَّقة على الجثة المقابلة له. لا يستطيع النظر إلى خميس، ولا يستطيع ألَّا ينظر. قام فغطَّى وجهه بالملاءة البيضاء. وجَد نفسه ينظر لجسد مُكفنّ، كان المشهد أكثر رعبًا من وجه خميس المزرق.

قام فنزع الملاءة، وشغّل أسطوانة الأكسجين علّ أزيز الأكسجين المتدفق يخدش رعب الصمت المتراكم. الصوت أزعجه، خصوصًا أنه لا رئة لتستقبله فشعَر كأنما يمثِّل بجثَّة خميس. لمح في الشنطة التي أحضرها أهل خميس ملاءة وردية اللون بها عددٌ من الأزهار. قام إليها ففرشها عليه، لكن ظل جسده المُحدد بالملاءة يُرعبه.

أخذ المخدة من تحت رأس خميس فوضعها على يمينه، ومخدته هو وضعها على يساره، وفرش الملاءة على الثلاثة فتوارى جسد خميس قليلًا بين المخدتين. فعاد إلى سريره، وجلس ينظر للورود التي تغطِّي الجثة.

سكت طويلًا، عينه معلَّقة بالباب ينتظر اللحظة التي يدخل فيها الطبيب لإنهاء الأوراق وحمل الجثة للمغسلة. لكن طال الانتظار فنظر لساعته فلم يجد إلا بضع دقائق فقط قد مرت، أدرك السيد أنها ساعات طوال.

شارع الصاغة هادئ على غير المعتاد، نظر السيد في ساعته فوجدها العاشرة والنصف صباحًا. استغرق ساعة فقط كي يصِل للشارع بعد أن أخَذ الذهب من والده. تَعجُّله جعل شعوره بالطريق أطول. تمشَّى في الشارع يبحث عن محل مفتوح، قطع الشارع مرتين، لكن الساعة لا زالت العاشرة و٤٥ دقيقة.

فجأة توقَّف حين تذكر أن اليوم هو الأحد أيضًا، لا تفتح محلات الذهب يوم الأحد، ومن يشذ عن تلك القاعدة بالتأكيد لن يفتح محل الذهب في العاشرة صباحًا.

لا يبيعون طعمية يا أبو السِّيد . رددها في عقله. لكنه أضاف لها: لكن لن أتحرك قبل أن أبيع الذهب، لو رجعت به سترجع أمي في كلامها.

اقتربت منه سيدة صاحبة فَرْشة شاي وقهوة، تنتظر أحدًا؟ سألته متشكِّكة. خاف أن تظن أنه لص يتربَّص لمحل معينٍ، فقال: أريد أن أبيع بعض الذهب . وضعت يدها على يده قائلةً: تعالَ. فابتسم قائلًا: ذهب أمي والله، لم أسرقه. لم تُبالِ وردت: المهم الحلاوة .

نادت السيدة على صاحب محل يسكُن أعلى محلِّه، نزل إليه ووزن الذهب، وأعطاه الثمن. وضع السيد ١٠٠ جنيه في يد الست، ثم انصرف.

في قريته، كان أبوه ينتظره بثمن القراريط الثمانية. جمع السيد المبالغ الثلاثة، وانطلق لصاحب فدان عند منشأة الأوقاف؛ قرية صغيرة حائرة على الطريق السريع بين مركزين كبيرين. لا يرغب أحد في السكن فيها لشدة إزعاج السيارات التي لا تنتهي، ولا يحب أحد شراء أرضها الزراعية لعدم وجود مياه ري دائمة، ولا بد من المجازفة بحياتك بعبور الطريق السريع عدة مرات لضبط ماكينة الري.

عاد السيد لوالديه فرحًا بالعقد. لم يصدق صاحب الفدان أن أحدًا سوف يشتري فدانه بزيادة ١٠ آلاف عن ثمنه مقابل أن يتم التوقيع الآن لا غدًا. قال لوالديه إنه اشترى لهما فدانًا كاملًا. لو حصل أي شيء فأرضكم وذهبكم في الفدان.

استغفرت الأم الله وهي تهم تجاه المطبخ قائلة: أنت أخذت مني ٤٠ جرام ذهب، عاوزاهم، وأبوك ترجع له الثمانية قراريط؛ لأنه لو قعد من غيرهم سيُجن ، يدرك السيد أن مليون جنيه رقم أكبر من قُدرتهم على الاستيعاب، لذلك لم يخبرهم بأنه قرَّر ألا يبيع الفدان إلا بمليون كامل، لكنه وعدهم أن

حاجتهم ستعود لهم قبل نهاية العام.

بعد خمسة شهور بدأت عملية شراء الأراضي من الفلاحين. لا أحدَ يفهم السر وراء تلك العمليات. اقتنع الأهالي أن لاعب كرة أصله من طنطا يريد أن يضع أمواله كلها في تلك الأراضي. لا أحد يعرف مصدر الإشاعة، لكنها كانت كافية ليشعر الأهالي بأن أموالهم حلال. وأن من يدفع ضِعف ثمن الأرض، دون حتى أن يطلبوا، ليس تاجرَ مخدرات مثلًا يريد أن يزرع أرضهم حشيشًا.

تتم عملية البيع بنظام وهدوء. قطعة تلي الأخرى، فكل قطعة تحصل على التصالح عبر المحكمة ويُعترف بها كأرض بور تستند قطعة الأرض المجاورة لها وتطلب المصالحة أسوةً بها. يريد المستثمرون أن يبدو الأمر كأن الفلاحين اقتدوا ببعضهم بشكل عفوي على مدار أشهر متتابعة، ولم يتَّخذوا القرار بشكل جماعي، كي لا يُحاربهم أعداؤهم باللعب على وتر الأرض الزراعية التي تتناقص يومًا بعد الآخر..

بقي على قطعة أرض السيد ست نِمر. التفاوض يسبق لقاء التوقيع، فقد أخبرهم السيد أنه لن يبيع إلا بمليون جنيه. لم يغير طلبه، ولا صيغته، الفدان بـ ٢٤٠ ألف، وأنتم تشترونه بـ ٤٨٠، أما أنا فأريد مليونًا. حدَاثة وجوده في المِنطقة جعَلت محامي المستثمرين يشكُّون أنه تابع لكيانٍ أكبر عرف بخبر إنشاء المنطقة، فتعاملوا مع طلبه بمنطق الرشوة المستترة الواجب دفعها. ولم يكن المحامي الذي قابله في القطار مسئولًا عن مفاوضة الفلاحين كي يُخبر أصدقاءه أن السيد مجرد شابٍّ رأى فرصة فاستغلها.

عرف السيد بخبر الموافقة وتحديد الأول من فبراير لتوقيع العقد وهو على بوابة كلية الآداب جامعة القاهرة داخلًا ليعمل لأول يوم في فرع المطعم في حرم الجامعة. كان يدخلها طوال سنوات كطالبٍ بها، لكنه يدخلها الآن كأي عاطلٍ يبحث عن أي فرصة للهرب من شعور البطالة.

بعد التخرُّج قضى السيد بضعة شهور في البلد يحاول البحث عن وظيفة تناسب تصوّر والدته عنه. لم يكن يبالي بشيء، لكن في وجود والدته عليه أن يكترث للمهنة التي سيشغلها. فلا يمكن أن يعمل نجارًا، ولا فني لحام. أما في القاهرة فيمكنه أن يفعل ما يشاء، ويُخبر أمه بأنه يدرس الماجستير عبْر مِنحة تفوق تتكفل بكافة مصاريف الدراسة وتُعطيه راتبًا شهريًّا كذلك.

صداقته مع أحد شباب الكافيتريا هي التي جلبت له الوظيفة، زميله راعى أنه كان طالبًا في نفس الجامعة؛ لذا حرص أن يعيّنه المدير في فرع آخر للمطعم في ميدان رمسيس.

لم يستسلم السيد لقدَره بعد التخرج؛ شعوره بأنه مميز ويمتلك ما لا يملكه آلاف العاطلين جعله لا يتعامل طبقًا لوظيفته كفتى في مطعم؛ يوجِّه زملاءه للقيام ببعض المهام، ويغيّر سياسات المطعم التي لا يقتنع بها. وإكرامًا لمن أوصى به، كان مدير فرع رمسيس يفوّت ما يفعل السيد. ففي إحدى المرات عايره السيد بأنه لا يعرف شيئًا عن الإدارة أو الطعام؛ لأنه خريج دبلوم. الكلمة أهانت المدير فقرَّر أن يرد الإهانة للسيد، فتواصل مع المدير الإقليمي لسلسلة المطاعم وطلب نقل السيد لفرع جامعة القاهرة.

أقسم السيد إنه لن يذهب، وخلع ملابس العمل وألقاها في وجْه مديره وانصرف. لكن الزملاء توسطوا عند الاثنين لتهدئة الوضع، فسمح المدير له بالعودة. السيد يعلم أنه لو كان غيره الذي ردّ على المدير لما أعاده للعمل، لكنه لا يريد فصل السيد إلا بعد أن يسترد كرامته.

أدرك السيد أنه خاسر في الحالتين، لو لم يعد للعمل فسيعود لوالديه عاطلًا، وستفاتحه أمه في التطوع للعمل مُدرسًا بالحصة في مدرسة البلد الإعدادية. ولو عاد، سواء نُقل لفرع الجامعة أو لا، فقد تيّقن المدير أنه بحاجة للعمل بشكل مُلح وسوف يدوس على وجهه بالجزمة في الشجار القادم.

ابتلع السيد الإهانةَ، وتغافل عن كرامته، فعاد للعمل ووافق على الذهاب لفرع الجامعة.

بمجرد أن سمع خبر الموافقة عبر هاتفه على توقيع العقد جرى إلى محطة رمسيس، ودخل على المدير الجالس في صالة المطعم، وصفعه على وجهه، ثم استدار وانصرف.

لم يلحق به أحد، لم يستوعب أحد ما حدَث إلا بعد ثوانٍ كانت كفيلة بالسماح له بالخروج من الصالة والتلاشي وسط الأمواج البشرية التي تبتلعها القاهرة كل يوم، ولا تلفظهم إلا يومي الخميس ليلًا والجمعة ليتنفسوا بعضًا من الحياة في محافظتهم ثم تناديهم مرة أخرى لغوايتها، وفي كل أسبوع يستجيبون.

في المحطة قرَّر أنه لن يركب قطار الغلابة، انتظر المكيف. أمامه ساعتان، لم يُطِقِ الصبر. خرج ليركب الميكروباص. لأول مرة في حياته جلس بجوار السائق وقال له: سأدفع الكرسيين. مدد السيد رجله في فراغ الكابينة، أول مرة يُجرب ذلك الشعور. أن تجلس في مقدمة السيارة، بجوار السائق، وخلفك ١٢ راكبًا يخمنون درجة ثرائك لدرجة أن تدفع أجرة إضافية لمجرد أن تجلس مرتاحًا.

الراحة أمر غير مهم عند الفقراء، المهم أن تصل، وبأقل تكلفة. أسند رأسه على الكرسي، ووضع يده على الكرسي المجاور، يحتضن مساحة خاوية تخبره أن حياته على وشك أن تتغير. راح السيد في نوم، لم يوقظه إلا السائق وهو يتكلم بأدبٍ يطلب منه الأجرة.

يا بيه الكلمة أسكرته، دائمًا كان يُنادى بـ يا أستاذ ، لكن لأنه دفع ثمن الكرسيين، صار بيه .

أفاق من سكرته وهو يضع يده في جيبه لم يجد إلا ٢٠ جنيهًا، تبقى ٣٠ غيرها لدفع أجرة الكرسيين. أخرج محفظته فوجد ١٠ جنيهات، مدَّ يده في جيب القميص ليخرج ٥ جنيهات، كان قد أعدها ليشتري بها كوب شاي داخل الكلية. ٣٥ جنيهًا، بقي ١٥. لاحظ السيد نظرات السائق المتحفِّز للخناق، فتذكر ٢٠ جنيهًا في جراب الموبايل. أخرجها فتمت الأجرة، واحتفظ هو بـ ٥ جنيهات يعود بها إلى قريته.

لم يحتمل الانتظار للمغرب لعودة والده من الحقل. رغم بيع القراريط إلا أنه ظل محافظًا على عادته بالجلوس على رأس الأرض من بعد صلاة العصر إلى أذان المغرب. أخبره السيد بالخبر، لم يشاركه والده الفرحة قائلًا: حين تعود القراريط الثمانية سأصدقك . كان صوته حزينًا على فقد الأرض، عيناه معلقتان بالبِرْسيم الأخضر الذي زرعه وتحت إلحاح السيد باع الأرض قبل الحصاد.

أخبره السيد أنها ستعود، ابتسم عزَّت لبراءة ما يقول ابنه. وقال له: أتظن أن أخوالك الذين كانت قراريط أمك الثمانية تفصل بين قطع أراضيهم سيعيدونها بعد أن صارت ملكَهم بالقانون. أخوالك لم يفرطوا في تلك القراريط الثمانية إلا بعد إلحاح أمك أن تحصل على وِرْثها أرضًا لا مالًا، وبعد تدخُّل كبار البلد وشيخ الجامع والعمدة شخصيًّا. أرادت أمك أن يكون لي أرض خاصة لكي أزرع أنا فيها وأصبح سيدًا يا سيد .

شعر السيد بالمرارة في نُطق والده لاسمه، فقال له: سأشتري لك فدانًا، سأشتري لك القراريط ومعها أرض أخوالي كلها، والزمام بأكمله . ضحك عزت، وربت على كتف السيد، ودعا له بالهداية وراحة البال، وأخبره أن يعود لأمه لا بد أنها تنتظر عودته.

عاد السيد دون أن تنقص فرحته، أخبر أمه بالخبر وبموقف أبيه، ولم ينتظر منها ردًّا. كان متأكدًا أنها ستحكي له عن صُعوبة التخلص من الأرض التي تُكمل عِرض الرجل، ثم تحكي عن صعوبة بيع الذهب على نفسها. فقد عاملته

كحصنِ أمانِ بَنَت أحجاره من تحويشات عمرها حجرًا بعدَ حجرِ.

غدًا أرد كل ما بِعتُه، ويتبقى لي الفرحة خالية من شعور الذنب وتبكيتهما.

قال جملته، وهو يستدير جهة اليمين ليمسك بشباك غرفته وينام.

بعد قيامه من النوم لاطف أمه وأخبرها أن الذهب سيكون في حوزتها قريبًا، وقراريط الحاج كذلك، وفوق كل ذلك رحلة عُمرة لكل منهما. تهلَّلت الأم عند ذِكر العُمرة واحتضنت ابنها بصورة لا إرادية. في حضنها تذكَّر السيد أن ذلك هو ثاني حضن بينه وبين أمه طوال حياته.

الحِضن الأول كان عند نجاحه في الثانوية العامة وحصوله على مجموع يكفي لدخول كلية الآداب حيث يمكن أن يصبح مُعلمًا. تُجل والدته المُدرسين كونها لا تعرف القراءة والكتابة، وتتمنى أن يصير ابنها مدرسًا ليمحو أُمِّية القرية بكاملها. تشد يدها على ظهر السيد، ويشد هو كذلك يده. كلاهما احتاج الحِضن، كلاهما كان يفكر فيه لفترة أطول من اللازم.

علاقته بأمه ليست جافة، لا تضربه، لا تقسو عليه، بل يناديها باسم دلعها، ولا تناديه إلا بسيد الرجال. لكن الخجل المتوارث في الأرياف جعل احتضان الأم لابنها أمرًا يُشبه الرضاع، يجب أن يُفطم منه الطفل في لحظة ما. لا يذكر السيد لحظة فطامه من الأحضان، بل يشعر أنها لم تحضنه أبدًا.

في حضنها لمح السيد أباه جالسًا في آخر الدار، حيث الفرن القديم المصنوع من الطوب اللبن. شعَر سيد بالخجل من أبيه، عُقدة فلسفية أبدية بين الأب والابن الذكر حول الأم. حرّك سيد أمه برفق ليُنهي الحضن، نزعت الأم يدها بسرعة كأنما كانت مُخدَّرة. نظرت لزوجها بخجل وهرولت للمطبخ.

الجمود ملأ المحيط، ذرات الهواء بين السيد وأبيه تصلَّبت؛ لا نسمة هواء ولا قُدرة للأحبال الصوتية على الاهتزاز. لم يحضن السيد أباه ولا مرة، رغم أنه ليس أبًا غليظًا، وليس السيد عاقًّا. إنما هي علاقة من نوع غريب تشكَّلت عبر السنين بين الأب والابن، لا يتكلمان وأعينهم متلاقية أبدًا، ولا يوجِّهان لبعضهما خطابًا بصورة مباشرة، بل عن طريق الأم، يا أم السيد قولي لابنك، يا صفصف قولي للحاج.

أراد السيد إنهاء هذا الجمود، فقال: لم أكن أدري أنها تَهْوَى زيارة السعودية لهذه الدرجة!

ردَّ الأب: بلد حبيبك النبي . لمح السيد في عين أبيه نظرة شوق تغلفها دمعة ممنوعة من التشكل. شعر أنه نفذ إلى أعماق قلب أبيه لأول مرة في حياته، فضغط على الحوار أكثر، تريدان الذهاب؟ سأل السيد لا ليسمع إجابة، بل

ليخدع أباه في الاسترسال في الحديث. كما توقع انهمر كلام الأب: زيارة الحبيب النبي صلى الله عليه وسلم مُنية أي قلب، وأمك نفسها تزوره منذ زمن .

أزال السيد نظارته، يحاول أن يشوِّش رؤيته قليلًا. نظر إلى خميس قائلًا: أخيرًا عرفت الإجابة يا خميس .

انشغل السيد طوال حياته بسؤال، ماذا على الجانب الآخر من العالم المنظور. لا يحتمل فكرة أن هناك مسارات في العالم الآخر، لا يهم ماذا سيوجد على الجانب الآخر، المهم بالنسبة له هو أنه يكره الاحتمالات.

لم يكن هذا طبعه دائمًا، بل عقيدة جديدة اكتسبها منذ ماتت أمه. بوفاة أمه مات الجانب الروحاني في حياته وحياة أبيه. كانت هي مَن تجعلهم يرون في المصائب رحمةً، ويستشعرون الفرج عند اشتداد الكرب. لكن بعدَها تهاوَى ذلك الصَّرح الروحاني. أو ربما كانت فكرة المسارات تزعجه لأنه يدرك أن أمّه بالتأكيد في الجنّة، بينما يراوده الشعور دائمًا أنه لن يكون معها هناك.

لم يفقد إيمانه بالكامل، لكنه لم يعُدْ مؤمنًا أيضًا؛ يصلي أحيانًا، ويقرأ القرآن، لكن لم يعد يبحث عن شيء من وراء ذلك. يفعلها لأنه اعتاد أن يجد راحته في تلك الأمور، لا يعرف. لم يعُدْ يفكِّر حقًّا. أي لحظة من التعمق في الفكر باتت تؤول في النهاية إلى وفاة أمه؛ لهذا أضحى هاربًا من الصمت والوحدة، ينغمس فيما يعرف ولا يعرف، يعمل ولا يتوقف، لا يدخل لسريره إلا وقد صرَعه التعب كي ينام بلا دقائق طويلة من الأرق الذي يسمح للذكريات بأن تكتسح حصونه.

سخونة مرتبة سرير المستشفى الإسفنجِيّة جعلته غير مرتاح، يعدل من وضعه كل بضع ثوانٍ، ثم يصبح المكان الجديد أشد سخونة. النار تنبعث من داخله هو، فلم يستطع أن يتشاغل عن حقيقة أن نافذةً قد فُتحت على العالم الآخر منذ دقائق. وأنه مضطر لمؤانسة جُثة لبضع ساعات قادمة.

نظر السيد إلى خميس، الملاءة الوردية سمحت له بأن يتخيَّل شكل خميس كما رآه منذ شهرين لأول مرة. أطال السيد النظر كأنما اكتشف أنه لم يحفظ ملامح خميس، والأدق أنه لم يرَ خميس من قبلُ. كان شخصًا يجلس في الغرفة، أو شخصًا يجلس السيد في غرفته ذات الشبَّاكين، بعد أن طلب بأدبٍ من الممرضة أن تنقله لغرفة بها شباك عليه أسياخ معدنية. استغربت طلبه، فقال لها: إنها عادة قديمة أن ينام وهو يمسك شيئًا ثابتًا كي لا يسقُط. ابتسمت الممرضة ساخرة، فوضّح لها أنّه أمرٌ تافه، لكنه يذكِّره بأمّه وبطفولته. لم تبالِ الممرضة بالتفسير، أرادت أن تتخلص من الحوار بأسرع

الطرق، فاستجابت له بعد مراجعة رئيسة التمريض وأحضرته لغرفة خميس.

فجأة، أصبح خميس إنسانًا، بعد تأمله في وجهه المُتخيَّل عَلِم أن له أولادًا وزوجة، هناك كون بالكامل يدور حول خميس.

في أيام الكلية الطويلة أثناء عودته من القاهرة، كان السيد يجرب تلك الحيلة لتمضية الطريق في القطار المزدحم.

الكمساري كان كيانًا هلاميًّا، لا يراه أحد كفرد من لحم ودم، بل وظيفة يحاولون الهرب منه. أما السيد فكان يتخيل أن اسمه مرزوق، أو أي اسم يخطر على باله حينها، مرزوق أب وزوج. له بيت في محافظة على خط القطار، يمر القطار عليها لكن لا يستطيع مرزوق أن ينزل إليها؛ لأنه يعمل. يتعاطف مرزوق المُتخيّل في ذهن السيد مع الركاب الذين يهربون من دفع الأجرة، لكنه لا يستطيع أن يسمح لهم بذلك؛ لأن الخصومات سوف تؤثر على ما سيشتريه لجهاز ابنته، وعلى تعليم ابنه.

يستحضِر السيدُ مرزوقًا ما مِن كل شخص لا يبالي به الناس، ولا يهتمون بشخصه، السيّد يعطي كل فرد قصته الخاصة، ويمنحه فردانيةً تجعله محورًا لعالم كامل.. كل فرد محور لعالمه، لكن عدم اكتراث الناس بذلك العالم يمحوه؛ لهذا حمل السيد على عاتِقه مهمة إعادة خلق تلك العوالم كي لا يتلاشى أصحابها.

فكرة صِبْيانية لتقضية الوقت، لكن لا يمكن النجاة في قطار الثانية والنصف المزدحم والبطيء القادم من القاهرة لطنطا إلا بها.

أزيز ماكينة الحلاقة يملأ الحمام الضَّيِّق، العرق يملأ لحيته وشعره، يعطل الماكينة عن العمل لثوانٍ، يضغط السيد عليها حتى تخترق الشفرة جلد وجهه، تخلِّف الشفرة نقاطًا حمراء تنزّ دمًا، الدم يظهر في وجهه وعلى فروة رأسه. تمتزج نقاط الدم الصغرى فتتكون دائرة كبرى بجوار الأخرى. يقف أمام المرآة لأول مرة منذ سبعة أشهر.

وفاة والدته جعلته مُقيدًا بسريره لا يُفارقه، أيام العزاء قضاها يصافح الناس دون أن يتكلم. غير مصدِّق أنه يقف في عزاء والدته. ظل مقتنعًا أن الأمر غير حقيقي، سيعود للبيت ليخبرها بأنه سيوقِّع عقد الأرض بعد ٧ شهور وسيحجز لها، ولأبيه، رحلة عُمرة سياحية مع أفخم شركة سياحة في طنطا.

الدم يسيلُ من جانب رأسه، والدمع يسيل على خديّه، يمتزجان فيكونّان قطرةً تجعل الماكينة تلسعه لسعة كهربائية. اللسعة تجعله يفيق لحقيقة أن والدته لم تعُدْ هُنا. يجفل لثانية، ثم يعود للعالم الذي يقف فيه عقله.

يتذكر لحظة استيقظ من نومه بعد حِضن أمه. الحِضن العابر سيصبح تقويمًا جديدًا يحدد به السيد ذكرياته. اليوم التالي للحضن استفاق وجرى ليسأل أمه عن الفطار، الفرحة أنسته أن يتعشى أمس. وجد والديه أمام التلفاز مفتوحي الأعين. شريط أحمر، يدرك السيد أنه أحمر، لكنه يظهر على تلفزيون عائلة السيد أسود، مكتوب فيه عاجل: اغتيال رجل الأعمال محفوظ أبو الوفا.

سأل السيد والديه: اغتيال مَن؟ ردّ والده بعصبية: أبو الوفا، رجل الأعمال المشهور يا سيد. الشاشة تنقل خبرًا عن الاغتيال، لكن المشاهد التي تنقلها لا شيء فيها سوى بشرٍ يجرون. تم اغتيال إنسان دهسًا. طريقة جديدة للاغتيال يبتكرها المصريون؛ بعد الاغتيال بالقباقيب، والأسلحة النارية، والسُّم، يغتال المصريون رجلًا يكرهونه دهسًا.

القناة تُعيد مشهد الدهس مرةً بعد مرةٍ، كما تعيد الأهداف في مباريات كرة القدم من زوايا مختلفة. في الإعادات فرحة مستترة من طاقم الإخراج، يبدو أن لهم ثأرًا -هم أيضًا- مع رجل الأعمال هذا، ربما فيهم ابن أو أخ لموظف من المفصولين. وبتكرارهم للمشهد بزوايا تظهر الإهانة البادية على وجهه حين وطأته أقدام الصفوف الأولى. يغتالونه بالإعادة مرة أخرى، يغتالون السيرة ويحفرون مشهد الدهس في قلب تاريخ الرجل.

ينضم السيد مع والديه في المشاهدة، غرقوا في الأمر جميعًا. انتقلت

الشاشة لعرض ما حدَث بالتصوير البطيء، تبحث الكاميرا عن القَدم الأولى التي تجاوزت الدائرة التي رسمها موظفو الأمن ورجال الحراسة الشخصية حول ربّ عملِهم، الرجل الأول الذي خدَش البركان فسمح لتلك الحمم بالاندفاع وابتلاع محفوظ أبو الوفا.

سخرت القناة التلفزيونية من المشهد بوضع خطوط قياس التسلل في مباريات كرة القدم لمعرفة من تجاوز خط الأمن أولًا، لكن لا أحد تجاوز أولًا، الجميع تجاوزوا أولًا. لحظة لا تحدث أبدًا، اتفاق جماعي لم يسبق في التاريخ، وربما لن يتكرر.

لأنه لن يكرِّر أحد خطأ رجل الأعمال هذا، لن يخرجوا لمواجهة موظفين غاضبين بسبب فصلهم التعسُّفي وحرمانهم من مستحقاتهم، لا بد أن باقي رجال الأعمال سيعتبرون مما حدَث، ويتخذون احتياطاتهم بالتأكيد، لكنهم بالطبع لن يفكِّروا في إرضاء الغاضبين، ومحاولة فهم لماذا يكرههم عمّال أفنوا أعمارهم في شركة استثمارية وساعدوا في تحوّلها لإمبراطورية شركات، ثم يجدون أنفسهم في الشارع دون حتى وعود كاذبة بالتعويض أو معاشٍ هزيلٍ.

لم يستوعب السيد أيًّا مما يحدث، هو يبحث عن عقد البيع في كل هذا! محفوظ أبو الوفا هو المستثمر الرئيسي في المشروع الذي جازف السيد لأجله بكل شيء. ماذا سيحدث للبيع وللمشروع؟ أخرج هاتفه واتصل بالمحامي الذي تواصل معه منذ أيام. بابتسامة يحاول بها خداع المحامي سأله بنبرة التقرير: ميعادنا ثابت؟ بضع ثوانٍ وأغلق الهاتف.

والداه لا زالت أعينهما معلَّقة بمشهد الدَّهْس، الاغتيال كما تصر القناة على تسميته، لم يلحظا تغيّر وجهه فقام مسرعًا قبل أن يلاحظا.

ذهب إلى القهوة؛ القهوة مكتظة بالناس يشاهدون القنوات التي تغطِّي الحدَث. ارتمى السيد على كرسي فارغ على طاولة يجلس عليها المعلم صبحي صاحب القهوة. يُجلّه الناس فيتركون كرسيّين فارغين عن يمينه وشماله، لكن السيد لا يملك له نفس التقديس فجلس عن يمينه غير مبالٍ، هول ما يحدث أذابَ كل المعتاد.

التفت السيد إلى المعلم وقال: "يسألني أي ميعاد!" ضحك المعلم وقال: "أي ميعاد، فات الميعاد". لم يتجاوب السيد مع المعلم وظلت ملامحه جامدة. طلب المعلم ليمونًا للأستاذ سيد، وسأله: "خير؟" توقف السيد لحظات قبل الكلام، يحاول تنقية ما سيقول، أو يحاول ألَّا يتكلم، لكن لا بد أن يتكلم، ولا

يمكنه أن يتكلم مع والديه.

قال للمعلم: "مشروع كنت أنوي المشاركة فيه، لكن النصيب حَكم". هوّن المعلم عليه بأنه طالما لم يدفع مالًا ولم يتقاضَ مالًا فهذا خير. استطرد المعلم حين تذكر شيئًا، هل هو المشروع الذي بعت لأجله أرض أبو السِّيد وذهَب الحاجة وأخذت تعويض أخيك؟

لا شيء يبقى سرًّا في قريةٍ عمومًا، وفي قرية صغيرة مثل كوم الأخضر خصوصًا. في ظروف غير الحالية كان السيد سينفعل وينهر أمه التي أفشت سرّه وجعلته سيرة للعامة. لكن كل المعتاد كُسر اليوم فهز السيد رأسه مؤكدًا. ثم استطرد قائلًا: "لكن لم أدفع شيئًا، الفلوس موجودة". تنهَّد المعلم، وقال: هكذا أفضل، الفلوس لا تأتي بسهولة، نشتريها بعُمرنا، وحين تضيع يضيع معها عمرنا.

ليهرب السيد من محاضرة عن القضاء والقدر، قال: "الحمد لله على كل حال". ثم همَّ بالانصراف، لكن المعلم حلف بالطلاق أن يشرب الليمون. كان السيد يحتاجه فعلًا، يحتاج وقتًا خارج الدار ليقرر كيف سيخبر والديه بما حدث. بدأ السيد يشرب، فهوَّن المعلم عليه: كفاية أنك بيننا، ناصر لم يعد موجودًا.

نظر السيد للمعلم مستفهمًا، فأجابه المعلم: ناصر المقاول مات. السيد سمع وهو يتحدث مع المحامي نداء ميكروفون المسجد بوفاة أحدهم، لكن لم يتبين الاسم لتعجُّله، لكن الآن تذكّر الاسم، ناصر المنشاوي. لم يسأل السيد عن حال ناصر ولا سبب وفاته، وجلس يتناول عصيره.

أثناء جلوسه سمع المعلم يحكي لرجل على طاولة مجاورة أنهم وجدوا ناصر بجوار مصرف المجاري، وهاتفه المحمول في يده، كان ذاهبًا لإلقاء قمامة فرح ابنه، صنايعي هو الآخر ونجار مسلح لا يتكرر. أقاموا الفرح بعد أن تقاضى ناصر دفعة مالية كبيرة من المقاول الذي يتولى مشروع المول التجاري.

كلمة «المول» خطفت ذهن السيد، ترك العصير والتفت إلى المعلم يستمع. لاحظ المعلم انتباه الأستاذ السيد فأخذ يحكي ببطء، فلأوَّل مرة يكون الأستاذ السيد من مستمعيه.

يحتقر السيد المقاهي، يراها مكان العاطلين. لكنه بداخله كان يدرك أنه يحتقرها؛ لأنه يخشى أن يكون من سكانها يومًا، الصورة الذهنية عنه من سكان كوم الأخضر كانت تمنعه من الجلوس عليها؛ لأنه أعلى منهم ووقته أثمن ومشغولياته أكبر، والسيد يعلم أنه كل هذا غير صحيح. فكانوا بهذا

التصور يسلبونه التسلية الوحيدة في القرية. حيث لا نادي رياضي، إلا بضع أدوات رياضية مستهلكة، ولا سينما، ولا مطعم، ولا حتى محل بقالة يعمل بعد العاشرة مساءً.

قال المعلم: المول مشروع سوف يُبنى على أرض منشأة الأوقاف، لهذا يشتري المستثمرون الأراضي من الأهالي. ولضمان موافقة الأهالي قرَّروا أن يقوم بأعمال البناء سكان القرية والقرى المجاورة، ليحن قلب الأهالي في التفريط في الأراضي الزراعية، بأنهم سيتقاضون ضعف ثمنها، وفي نفس الوقت سيكسبون دخلًا شهريًّا لأبنائهم عبر أعمال البناء، ثم عبر الوظائف الثابتة في المول بعد تشييده.

- وناصر يعني كان هيبقى رئيس مجلس إدارة المول؟

جاء السؤال من آخر الحلقة الملتفة حول المعلم، فضحك الجالسون ثم تذكَّروا أنه الآن جثة في بيته ينتظر الدفن بعد العصر فسكتوا واستغفروا. استطرد المعلم قائلًا: ناصر يعمل في المجلس المحلي، وعن طريق وسيط وصل إلى المقاول الرئيسي المقيم في العاصمة. كلّفه المقاول بمهمة واحدة، أن يجمع كل أسطوات النجارة المسلحة والمقاولات في القرية والقرى المجاورة، ويكون ناصر حلقة الوصل. وبناءً على ذلك تلقى ناصر من الرجل مبلغًا كبيرًا، يقولون ١٠ ملايين، ويقولون مليون، ويقولون مائة ألف، الله أعلم بالرقم، لكنه أخذ عربونًا.

الصبح حين كان ناصر متوجهًا لإلقاء قمامة الفرح على ظهر العربية بالحمار. يبدو أنه جاءه اتصال من المقاول الكبير يخبره بأن باقي المستثمرين قرَّروا إيقاف المشروع. لم يتحمل ناصر الخبر؛ لأنه أنفق مبلغًا ضخمًا في فرح ابنه ودفع عربونًا لأكثر من ٢٥ مقاولاً آخر، ولا يمكن أن يردوا له الأموال؛ لأنهم نقلوا خشبهم بالفعل للمول، واعتذروا عن الأشغال الأخرى. فسقط مكانه، بجانب المصرف وسط أكياس القمامة، ولم يلمحه إلا الولد علي بن مصطفي الحلّاق، لكن السرَّ الإلهي كان قد فارقه.

شعر السيد بالسكينة؛ لأن مشروع المول صار حقيقة، وهناك آخرون سيعملون فيه، ومقاولون يذهبون إليه. فجني الثمار بات قريبًا. لكن في اللحظة التالية أدرك أن الثمرة الجاهزة للقطف سقطت على أرض بعيدة عنه؛ أرض فيها موظفون غاضبون يغتالون صاحب الشركة.

التغيير مزعج، خصوصًا لشاب انقضى الثلاثون عامًا الأولى من عمره دون أن يجازف بأي شيء، لا سيجارة، ولا سهرة مع فتاة، ولا حب بريء أيام

الجامعة، ولا رهان على مباراة كرة قدم. لم يغامر في حياته إلا مرة واحدة فقط بالتخطيط لشراء الأرض، ويبدو أنها كانت مغامرة خاطئة.

هي لم تكن مغامرة تمامًا في رأيه، هو حسبها بأنها بيع أرض لشراء أرض، وأن سعرها بالتأكيد سيزيد مع الزمن، فلو جاء المول فخير، ولو لم يأتِ فليس الأمر خيرًا تمامًا، لكنه ليس شرًّا، فسوف يبيع الفدان ويعيد لوالديه ما أخذه. كانت المعادلة بهذه البساطة قبل أن تتمكن أحلام الثراء والبيت الرخامي والسيارة من عقله، مرة جديدة يقع السيد فريسةً لخياله.

***

قطرة عرق دخلت في عينه فحرقته، أعادته للمرآة المتربة التي يقف أمامها وماكينة الحلاقة التي تجز شعره. يحب السيد شعره الهارب من اللون الأسود إلى أول حدود الأصفر، شعره وعينه الملونة يقولان لمن لا يعرفه أنه من نسل بشواتي. كان شعره دائمًا محل اهتمامه، لا يحلقه إلا في لحظات الاكتئاب، أو الإخفاق الشديد، حين يريد أن يُشعر نفسه بأنه تغيّر.

هذه المرة يحلقه ليقولَ لأبيه إنه عاد من عالم الحزن. انهارت قوى والده فجأة فلم يعد يقدر أن يواسي السيد أو يتكفل بتجهيز الطعام وتنظيف البيت. إحدى خالات السيد صفعته بالحقيقة، أنت مات لك أمّ، أما أبوك فمات له أبٌ وأمٌّ وابنان وزوجة. استجمع قواك وقُم.

كشفت له المرآة عن خصلة شعر واقفة على أنفه لم يشعر بها، فأزاحها. لم تعد يقدر على الوقوف، فهوى على أرضية الحمام يبكي. تكوَّر في أرضية الحمام يتذكر العام الأول بعد اغتيال محفوظ أبو الوفا وتوقف المشروع، ثم العام الثاني، ثم العام الثالث. كل يوم يحلم أن المشروع سيعود، الأسبوع جر آخر، والشهور تتابعت. مرّت الأيام ثقيلة كالجبال لكن السنوات مرت سريعة كغمامة سوداء، لا يدري من يراها أتحمل له مطر النجاة أم سيول الهلاك.

يصفع نفسه على خدّه وهو يتذكر تكرار وعده لأمه بأن رمضان القادم سيكون موعد عُمرتها. تهز الأم رأسها وتعود لإعداد الفطار فقد ملّت سماع هذا الوعد. أبوه أيضًا شَابَ شعره وانحنى جسده. صحته تدهورت، ثلاث سنوات من الفراغ وغياب الأرض أجهدوه أكثر مما أجهدته سنوات عُمْرِه كلها التي قضاها في عزق الأرض وجرّ البهائم في شمس الصيف.

صوت بكاء السيد المرتفع في الحمام على أمه جذَب والده. تحامل على قدميه وطرَق الباب يناديه؛ أجابه السيد: يا ليتني لم أرجع في البيع للمعلم سعيد. قال له والده: قضاء الله نافذ في كل الأحوال. رد على أبيه قائلًا: "أنا

طمعت، قالوا ٤ ملايين، أنا طمعت، لم أكن أعرِف أن الثمن سيكون هي".

قبل شهور قليلة كان السيد قد يئس من عودة المشروع؛ فقرر بيع الفدان. راهن على بيعها للمعلم ياسر؛ صاحب مخبز ومعرض أدوات منزلية في الظاهر، لكنه يكسب أمواله من إقراض الناس بفائدة كبيرة. كان سعيد أغنى من في قريته، وأكثرهم طمعًا، لهذا توقع السيد أن إقناعه بمستقبل الفدان سيكون يسيرًا. دخل السيد إلى المحل، رحَّب به المعلم، همَّ السيد بالجلوس لكن هاتفه رنَّ. المحامي القديم أخبره بأن مستثمِّر جديًد اشترى حق تنفيذ المشروع من باقي المستثمرين، وسوف يُبادر في الإنشاءات خلال شهور قليلة. انتفض السيد فرحًا، وغادر المعرض دون أن يصافح المعلم. عاد السيد متهللًا لوالديه يخبرهما، هنَّآه وأكملا شُرب الشاي.

تهنئة باردة لم يتوقعها السيد منهما. على سريره أدرك أن رد والديه الفاتر هو الرد الوحيد المناسب، فقد كرَّر على أذنهما عشرات المرات أن الأزمة ستنفرج قريبًا. فلماذا يتوقع منهما أن يظنَّا أن تلك المرة ستكون مختلفة.

- لكنها مختلفة!

كرَّر السيد الكلمة بصوتٍ عالٍ ثم أغمض عينه يحلم بما سيفعل بثمن الفدان الذي أصبح ٤ ملايين كاملة، بعد أن كان مليون من ٣ سنوات، وقد اشتراه السيد بقطعتي ذهب و٨ قراريط. أول شيء فعله السيد في الصباح التالي هو عدم الذهاب للمدرسة. ثلاث سنوات وهو يقبل أن يعمل بالحصة لمجرد ألَّا يشتغل في جُرن البصل مع الفلاحين. يقول: إنها وظيفة نظيفة على الأقل، وتحفظ لأمه بعضًا من خيالاتها المتعلِّقة بابنها الذي سينير عقول القرية بأكملها.

خذلها السيد بما يكفي، فليحفظ لها الحق في التخيل على الأقل أثناء ٨ ساعات بغيضة يقضيها مع تلاميذ لا يبالون بالتعليم في مدرسة ليست مدرسة. أخبرهما أن عليه تجهيز بعض الأوراق لبيع الفدان، وأن ذلك سيستغرق وقته بالكامل خلال الأسابيع القادمة.

لم يوافقاه، ولم يمنعاه. كانا قد استسلما تجاهه منذ أخبرهما أن حادثة محفوظ أبو الوفا أضاعت المشروع. لم يدركا علاقة حادثة في العاصمة بفدان أرض زراعية في قرية مجهولة على طريق سريع بلا اسم. لكنهما قَنِعا بوجوده معهما، سنوات الدراسة في الكلية والسكن الجامعي والعمل في المطعم جعلهما يذوقان الوحدة، يشعران بأن البيت خاوٍ وأن الابن الثالث هو آخر فرصة لهما في الونس، والجِذْر الأخير الذي سيضمن استمرار شجرة

عائلتهما، وطالما لم ينزعه الموت منهما فكلّ شيء هينٌ، وكل ما يطلبه أمره سهل طالما ليس الاستقرار بعيدًا عنهما؛ لذلك رَضِيا بما ضاع من الذهب والأرض فِداءً لبقائه بجوارِهما.

هو أدرك ذلك أيضًا، فنزع فكرة السفر من حياته، وقرَّر أن يكون مع أبويه كرهنٍ للأرض والذهب، لا يتحرَّر إلا حين يعود المفقود. وكان تطوعه للعمل في المدرسة نوعًا من قهر الذات وزيادة في تعذيبها كي يخلِّص ضميره من شعور الذنب تجاه والديه.

بعد أسبوع من المكالمة الأولى، تلقَّى مكالمة أخرى تحدِّد الميعاد بعد ٤ أشهر بالضبط، ريثما ينتهون من القطع الخمس التي تسبقه، ويكون السيد أنشأ حسابًا بنكيًّا ليتم تحويل الفلوس عليه. وجدد بطاقته الشخصية، وسجل الأرض باسمه في الشهر العقاري. سجل السيد كل المطلوب وبدأ في تنفيذه خطوة خطوة، استدان من المعلم ياسر قرضًا صغيرًا كي يستطيع تخليص الورق بشكل أسرع.

٧٥ يومًا استغرقها الأمر لتجهيز كل المطلوب، وباتت كل الأوراق جاهزة؛ دوسيه أصفر بكبسولة بيضاء يجمع الأوراق، أصل و٤ صور من كل شيء. ينظر السيد للدوسيه يترقَّب اللحظة التي يحمله فيها ويُعطيه للمحامي كي يبادله بتحويل بنكي قيمته أربعة ملايين جنيه. لهذا صوّر كل ورقة أربع مرات، يقول في نفسه ساخرًا: كل نسخة بمليون جنيه.

في ليلة لا يذكر السيد موقعها من الزمن، لكنها كانت قبل وقوفه أمام المرآة ليحلق ذقنه وشعره بشهور طويلة، ناداه أبوه.

- سيد!

نداء مقتضَب، زلزله. الصوت الحازم بين ثناياه نواح مكتوم؛ انتفض السيد من سريره لغرفة أبيه، فوجده يبكي وبجواره أمه. بياضها كان شديدًا، وعيناها مغمضتان، وشعرها الأبيض ظاهرًا، لم يره السيد منذ سنوات، فلم تظهر أمامه أبدًا إلا بطرحتها أو إيشارب صغير. دائمًا ما سترت شعرها أمامه.

ساكنة؛ لا تُصدر صوتًا، ولا تُعد فطورًا، أو تصُبّ شايًا، أو تدعو للسيد ووالده، أو تعمل كجسر لنقل الكلام بين السيد وأبيه، الصمت فقط هي كل ما تفعله للمرة الأولى منذ وعى السيد على معنى الذاكرة والأمومة.

- غيبوبة سكر؟

سأل السيد متمنيًا إجابة غير التي يعرف أنها الحقيقة. نظر عزَّت في عينه

ولم ينطق. لأول مرة في حياة السيد تتلاقى عينه وعين أبيه. لم يسمع السيد سوى النهنهة فدخل الغرفة يُقلِّب بين أرفف الدولاب حتى أخرج جهاز قياس السكر الذي أحضره لها منذ ٥ سنوات. الغلاف البلاستيكي لا يزال عليه، لم تستخدمه ولا مرة. ولم يتذكر السيد طوال ٥ سنوات أن يسألها عن حالها مع مرض السكر.

أخرج إبرة ليشك إصبعها، فمنعه والده: "لا تجرحها، حرام عليك". انكب السيد على طرف السرير يبكي. لم يجرؤ أن يُقبِّلها، فلم يُقبل والدته أبدًا، وسيظل حتى آخر أيام حياته يندم على أنه لم يقبِّلها قبل ذلك أو حتى قبل أن تُدفن. أمسك والده بذراعه ورفعه، أمامنا الكثير، وصيتُها أن تُدفن بمجرد أن تموت، لم ترد أن تُترَك هكذا كثيرًا.

عاد جسد الاثنين من الدفن والعزاء، لكن روحيهما دخَلتا القبر مع صفيّة، البيت مليء بالناس وصواني الطعام تأتي وتذهب. هما صامتان، لا كلام ولا طعام. يتيمان يبكيان أمهما، وصغيران يواجهان الحياة بمفردهما لأول مرة. كانا خائفين، وحزينين، ولا يعرفان ماذا سيفعلان في الصباح التالي. لولا أن مراسم الدفن والعزاء مكرَّرة، وأيادي الكثيرين تساعد فيها، لما عرفا كيف يرتبانها.

ارتطمت رأسه وهو يعيدها للخلف، فالذكريات أعادته لكرسي القطار، لكنه لم يزل على سرير المستشفى.

شعر بنارٍ أسفل منه، فقام يتمشَّى في الغرفة؛ التّمشِية بدون أسطوانة تشدكَ وترزعكَ في الأرض نعمةٌ. رفع يده يتحسَّس مؤخرة رأسه المجروحة، وكفه الأيسر يضغط الفقرات القطنية، ربت عليها قائلًا: شكرًا أنك ما زلت في مكانك .

أول أسبوعين في المستشفى لم يَعتَدْ وجود قناع الأكسجين الموصول بالأسطوانة ثقيلة الحجم. كل بضع ساعات كان يقع على أرضية الغرفة؛ سيراميك غير مغطًّى بأي فرش، فلا شيء يُقلل من قوة الصدمة. كانت الصدمات كفيلة بإصابته بارتجاج في المخِّ. لكن انحناء جسد السيد بعد خسارته القضية أمام أولاده كانت هزيمة نفسيةً، أما قوته البدنية فما زالت كما هي.

رَاكمَ تلك القوة عبْرَ السنوات؛ ساعة في الجيم يوميًّا لتدريبات العضلات والقلب منحته قلبًا قويًّا وجسدًا صُلبًا لم يقدر بؤس شهوره الأخيرة على إذابته، ربما أذاب الكثير من الدهون، ونزع لون الصبغة من شعره، وكسا أسنانه بصُفرة عميقة، إلا أن أعماق السيد ظلت قوية، كان يتمنى من حياته الرياضية أن يطول عمره، أو على الأقل أن يحيا كامل حياته بصحة جيدة، وأن يقابله الموت في مكتبه أو في الصالة الرياضية لا في دار للمسنين وهو يُبلل فراشه.

تمشَّى قليلًا، اكتشف أن الغرفة مظلمة، القمر تكسوه سحابة سوداء منذ فترة، لم يعرف السيد طولها، لكن الغرفة الآن تشبه القبر. تشبيه بلاغي إذا كان الحال غير الحال؛ لكن في وجود جثة، وفي مستشفى، فالكلمة مُقبضة بما يكفي ليتقدمَ نحو الباب فيفتحه. فتح الباب ثم ارتمى على السرير محلِّقًا في السقف.

منذ ٦ أيام لم يكن يستطيع أن ينام على ظهره لأكثر من ساعة. نام على بطنك لأن ذلك أفضل للرئة في حالتك . ابتسم حين تذكَّر كيف كانت كلمة حالتك لا تمر بسلام من خميس حين تنطقها الممرضة.

حالتك وحالتك كأن كل واحد له حالة. نحن في زريبة وكلنا عندنا نفس الداء، وطِوالة العلاج الكذاب واحدة للكل. وتقول لك حالتك وحالتك، أنت تأخذ

هذا العلاج؛ لأن حالتك كذا، أما أنت فالدكتور كتب لك علاجًا غيره؛ لأن حالتك كذا، وفي النهاية هم يعلفوننا للموت. لولا أن الموضوع مُعْدٍ كانوا تركونا في بيوتنا. لكنهم خائفون على الشباب، أو ربما يخافون أن البيت كله يموت ولا يجدون من يدفع رسوم تصريحات الدفن!

بعد تحسن حالة السيد، أصبح مسموحًا له بأن ينام على ظهره، فنام عليه، نام لا لأنه يحب النوم على ظهره، لكن لأنه يستطيع أن يفعل. فتح عينه على اتساعها، فالخاطر كان لحظة كشف صُوفيّةٍ؛ لأني أستطيع لا لأني أحب.

رددها بصوتٍ مرتفع، ثم مال برأسه جهة خميس فأصدرت المخدة الجلدية خروشةً، ثم بحماسة استدار بجسده كاملًا فنام على جنبه الأيمن ووجهه مواجِه للجُثمان، قائلًا:

مأساتي كلها في هاتين الكلمتين يا خميس. عشت ٦٠ سنة، جسمي كالسيف بالتمرين، وأسناني وقعت وزرَعتُ غيرها، وشعري تحوَّل للأبيض وصبغته مائة مرة، ولم أستخلص هاتين الكلمتين. معارك دخلتها دون أن أعرف لماذا دخلتها، ومكاسب سعيتُ وراءها إلى أن نِلْتها، دون أن أعرف لماذا، لكن الآن عرفت؛ لأني أستطيعُ لا لأني أحبُّ.

ترديده الكلمة بصوت مرتفع للمرة الثانية جعَل لها طعمًا على لسانه، إجابةٌ ظل يبحث عنها لسنوات، والآن تأتيه في آخر مكان توقَّع أن يكون فيه، وعبْرَ مؤانسةِ جُثمان.

عاد السيد للنوم على ظهره والتحليق في الذباب الكسول القاطن على السقف، يفكِّر في الذباب الأسود ضعيف الذاكرة المُلتصق بالسقف، كيف يرى السيد! هل يسخر الذباب منه قائلًا: أحمق جاء يواجِه الموتَ على سريرٍ مُتهالك رقد عليه قبله مئات المرضى. ربما أزيز الذبابة التي تقترب من أذنه ليست إلا رسالةً تحاول أن تُخبره أن لا شيءَ تغيرَ. إن كل الحمقَى الذين يواجهون الموت يريدون أن يجعلوا لتلك التجربة معنًى، يوهِمون أنفسهم بأنهم خرجوا منها أكثر حِكمة مما دخلوها، وربما لم يخرجوا منها إلا أكثر سذاجة.

أخرج السيد يده من أسفل دماغه وأشار بإبهامه علامة استحسان لكلام الذبابة. دخَل في الحديث وقال بصوت لم يسمعه خميس الميت بجواره لكِن ربما سَمِعه الذباب: نعم سذاجة، يخرجون من هنا يقولون إنهم يُسامحون العالم على جرائمه، ولا يريدون من الحياة سوى السلام.

أشار بسبابته إلى صدره مضيفًا: أنا شخصيًّا كنت سأخرج أذهب لأولادي

وأسامحهم، وكنت سأقول للموت سامحتُك على أخذك أمي وأبي ونور. سذاجة وحُمق فعلًا، برافو يا ذبابة.

فرحته بالكشف لم تكتمل، فدراسته للفلسفة جعلته قادرًا على تفنيد الكلام، ورؤية النقيض في النقيض، فحين قال إنه دخل في المعارك لأنه يستطيع الفوز بها لا لأنه يحب، تذكّر المعركة الوحيدة التي أحب أن يكسبها، لكنه لم يستطع.. قَلْب نور.

السيد قبل أن يدخل المستشفى ببضعة أشهر دخل المحكمة، لكنه خرج منها قبل أن يَصْدُرَ حكمُ القاضي بموته اعتباريًّا وإجرائيًّا، أراد استنشاق الهواء بينما هو ما زال حيًّا على الأوراق الرسمية لبضع دقائق أخرى.

خرج وهو لا يرى سوى مشهده وأبيه بعد وفاة صفية بعامٍ؛ هو يهدم البيت القديم تمهيدًا لبناء منزل حديث يليقُ بنور، وبالحالة الاجتماعية التي أضحى عليها الأستاذ سيد، صاحب سلسلة محلات صفيّة للأجهزة الكهربائية.

البيت ينهار، كان كعجوز سقطت أسنانه بعد أن خلَعوا البابَ الكبير والشبابيك وأخرجوا منه كل الأثاث تمهيدًا لهدمه، لم تَحتجْ جرافة الهدم إلا مُلامسته مرة واحدة فحسب، فانهار البيت كله مرة واحدة؛ سَحابة ضخمة من الغُبار لم تسكن إلا بإلقاء المياه عليها من كل جهة كأنها حريق يُخمده الأهالي.

أخبره أبوه بذلك قبل أن يتفق مع جرّافة الهدم؛ أخبره أنه لا يحتاج للجرّافة، عليه أن يقترب من البيت ويدفعه بقبضة يده وسينهار. النخلة لم تُلقِ أبناءها لمريمَ العذراء لقوة امرأة نُفساء تدفعها، لكن لأنها شعَرت بصِدق احتياج مريم لها فساعدتها، والبيت لا تهدمه الجرّافات، بل يهدمه تخلِّي صاحبه عنه. ولا يهزم الزمن أي شيء، بل تُهزم الأشياء بهَجْر أصحابها لها.

عقيدة يؤمن أبوه بها، ورِثها عن الجَد الأكبر الذي أخبره بأنهم كانوا إذا أرادوا قطع شجرة عتيقة جذورها ضاربة في الأرض، كانوا يأتون بمن زرَعها وتعهَّد بالعناية بها، فإذا كان مات يأتون بأحد من سُلالته، ويعطونه مسمارًا صغيرًا ليدُقَّه في جذع الشجرة. لا يمر الأسبوع إلا وتكون الشجرة قد ذبلت، ويصبح قلبها خاويًا فيسهل قطعها بأبسط الأدوات وأقل المجهود.

الآن فَهِم السيد كيف لمسمار صغير أن يقتل شجرة عملاقة، فقط لأن غارس المسمار كان متوقَّعًا منه الحضن لا الطعن؛ فالناس تشتاق للذرية كي تضمن استمرار سيرتها بعد انقضاء أجلها، لا أحد يأتي بالذرية ويتوقع أن يرفعوا قضية للمطالبة باعتباره ميتًا، وبالقضاء سريعًا على سيرته، وتحويله إلى عدَم.

رفع قدمه عن الأرض، أمامه شارع طه الحكيم، وعلى يساره شارع البنزينة، ويمينه اتجاه الجُملة، لا يعرف إلى أين يذهب. لا يعرف إلا أن الجاذبية ستجبره على وضع قدمه المرفوعة، وسُنة الكون ستجبره على رفع القدم الأخرى. استجاب لهذه القواعد وسمح لها بأخذه إلى مقهَى شُهود الزور

المقابل للمحكمة.

يحتقر هذا المقهى، لازَمَه احتقاره للمقاهي حتى بعد أن تأكَّد أن ثراءه يسمح له بالجلوس عليها دون أن يظن أحد أنه عاطل، لكنه يكره هذا المكان تحديدًا؛ لأنه المكان الوحيد الذي لا يطاوعه عقله في خلق حكاية للجالسين فيه. يفشل في أن يخلق حكاية كلما مر عليه وهو متوجِّه إلى المحكمة للحصول على صحة توقيع لعقد شراء مبنى جديد يضع فيه أمواله. الأسعار المتزايدة جعلته لا يأمن للبنوك، تنخفض قيمة الأموال بشكل متسارع، فلا يكاد يجمع بضع ملايين إلا ويشتري بهم عقارًا أو قطعة أرض جديدة. بسبب رغبةٍ لم يفهم دوافعها كان يُصر أن يقضي مشوار الشهر العقاري بنفسه، ربما يريد أن يتأكد بنفسه أن أوراق العين التي وضع فيها أمواله سليمة، أو ربما يريد الضغط على خياله بالمرور مرة بعد الأخرى على قهوة شهود الزور علّه يُسعفه بقصة لأحد الجالسين.

ففي أيام مضت قبل هذا اليوم كان يحاول أن يلتمس العذر للجالسين. رجل جاء المحكمة في قضية وجلس على المقهَى يستريح حتى موعد قضيته. هذا أقصى ما يتصوره خياله الخصب. أُطلق اسم شهود الزور على المقهى من باب المزاح أولًا، ثم تحوَّل الأمر لحقيقة وبات المقهى ملتقى كبار المحامين وشهود الزور. خصوصًا أن تصميمها حين تأسيسها كان عصريًّا؛ ماكينات لإعداد القهوة، وقوائم مشروبات مكتوبة بالإنجليزية، ويُديرها باريستا متخصِّص كان يحلم أن يغيّر مفهوم الناس عن المقاهي وأصحابها. فبات يقصِدها الفئة العُليا من المحامين وبعض القضاة. لكن بدأت أقدام المواطنين تتسرب إليها فهَجرها القُضاة، ثم كبار المحامين. وأصبحت في النهاية قهوة بلدي. وتحوّل اسم مالكها من أستاذ كمال باريستا، إلى المعلم كمال الباريستا.

حاول التشاغل عن الصورة التي تتكرَّر في ذهنه بإغماض عينه ليضغط على عقله أن يُخرج له قصة تجعله يرى ما وراء تلك الشخصيات لكنه لا يستطيع. فدائمًا ما يقوده عقله لسيدة تبكي لضياع حقِّها بسبب شهادة أحدهم، أو شاب يشيخ في السجن بسبب تُهمة ثبتت عليه بشهادة رجل جالس على المقهى يبحث عن بضع جنيهات. يضرب السيد رأسه يقول: طالما ينتظر الجنيهات معناه أن في حياته مأساة ما دفعته لِما يفعل. يرد السيد على نفسه بصوت مرتفع قليلًا: ليس دورك أن تكون محامي الشيطان يا أبا أحمد. بعض البشر سيئون بلا دوافع تحرّكهم أو مأساة تجبرهم، هم كذلك لأنهم كذلك.

ُ

لم يسعفه عقله في التشاغل عن انهيار المنزل، الصورة تتكرر بلا توقُّف. سحب كرسيه بعيدًا عن الشمس، فوجد نفسه قد صار في مقابل باب المحكمة مباشرةً. فَهِم السيد لماذا يحتملون حر الشمس، الجلوس مقابل باب المحكمة قد يجعل وجوههم مألوفة للخارج والداخل.

رفع السيد يده مناديًا على القهوجي، هذا أكثر ما يُحبه في المقاهي، عدم اضطراره للكلام فإشارة واحدة تجعل القهوجي يأتي، ويزداد اطمئنانه في المقاهي الفخمة حيث توجد قائمة المطلوبات؛ لأنه يشير إلى الطلب الذي يريده دون نطقه. لكن في قهوةٍ أثاثها متهالك وزجاجها يكسوه لزوجة سوداء سيضطر للنطق بالمشروب.

- قهوة سادة، علقم.

كرَّر القهوجي الطلب بصوتٍ مرتفع ومُنغّم وهو يبتعد عن السيد لكن دون تكرار كلمة علقم. تنهَّد السيد، يحاول استيعاب ما حدث للتوِّ داخل مبنى المحكمة المقابل. تنهَّد ثانية وهو يخلع نظارته ويجفِّف العرق حول عينيّه قائلًا: "المبنى ينهار، المبنى انهار". ارتدى النظارة شاردًا ونطق بصوت ضعيف: "على رأسي".

وصل إلى أُذنه تهامس الجالسين بالقرب منه. رأى بجانب عينه نظرتهم إليه فعَلِم أنهم يتهامسون به. لم يستطع أن يفهم باقي حديثهم. جاء القهوجي ليضع الكوب على طاولة السيد، فرأى شروده تجاه الطاولة المجاورة.

- "السماسرة".

يفيق السيد من شروده قائلًا: "نعم!" رد عليه القهوجي هؤلاء هم السماسرة، سماسرة شهود الزور.

سأله السيد وعينه تضيق من التعجُّب: الموضوع له سماسرة أيضًا؟ وما علاقتهم بي؟ اقترب منه القهوجي أكثر، همس له: خائفون أن تكون مُخبرًا؛ لكن لأنك بلا شارب ووجهك يبدو عليه النعيم، فلا يظنون أنك مخبر عادي، يتوقَّعون أنك ضابط تبحث عن ترقية أو عن حل لقضية خسرتها بسبب شهادة أحدهم.

ابتسم السيد دون أن يكشف عن أسنانه: لا هذا ولا ذاك. ابتعد القهوجي قليلًا وقال بصوت أعلى ليسمعه المجاورون: إذن شاهد جديد.

لاحظ السيد أن أحد الجالسين على الطاولة المجاورة اعتدل في جلسته ووضع لَيَّ الشيشة في فمه، ودقَّق في حوار السيد والقهوجي أكثر. لم ينتظر

القهوجي السيد ليسأل فشرح له أن الشاهد الجديد زبائنه كُثر، وثمنه أغلى. أرخى القهوجي يده الممدودة والصينية فوقها، وأسدلها بجواره ليهم بالانصراف، قائلًا: لأن القُضاة لا يعرفونه والمحامون كذلك.

تدخَّل أحد السماسرة في الحوار دون أن ينتظر التفات السيد إليه قائلًا: عكس السينما، هناك الوجه الجديد يتقاضى ملاليمَ، لكن هنا آلاف وزيادة على حسب وزن القضية وقيمة شهادته.

سعل الرجل الآخر الجالس على الطاولة وبصَقَ في اتجاه السيد، وقال بصوتٍ أجشَّ: لا تضحك عليه، شكله طيب ولا بد أن يعرف الحقيقة. هنا لسنا مثل السينما، هنا مثل البنت البِكْر، أول مرة بثمن أغلى، وثاني مرة بثمن غالي، وباقي حياتها أرخص.

جفل السيد من جرأة التشبيه، لم يَعتدْ في بيته ولا في عمله أن يتحدث أحدٌ أمامه في هذه المواضيع ولا في أي موضوع آخر بنفس الجرأة، حتى يوم زفافه لم يخبره أحد أي شيء، وظل زواجه مؤجلًا لمدة أسبوع؛ لأنه لا يعرف ما يفعل.

انتفض السيد، مشى دون أن يدفع ثمن كوب الشاي، ظل الارتعاش مسيطرًا عليه وهو يمضي مبتعدًا.

"لم أستطع أن أكسب قلبَ نور يا خميس".

قالها السيد وهو يرمُق جُثمان خميس بنظرة حاسدة. يفكر السيد أن زوجة خميس ستبكيه كأن الحياة انتهت؛ خميس لأسرته البسيطة هو الجدار الذي يحتمون خلفه من هجمات الحياة. فكرة أخرى هاجمت السيد أن أولاد خميس سيبكون عليه أيضًا. أبناء خميس فقراء لكنهم كافحوا لكي يُحجز في المستشفى، لا بد أنهم يحبونه حيًّا، لا يريدونه ميتًا كما قالت صفية ابنة السيد له.

الشهور التي قضاها السيد في المقابر أورثته حسدًا لمن يموت صغيرًا؛ يحزن عليه الناس حزنًا حقيقيًّا؛ لأن موته يكون مفاجئًا. المشيعون كلهم تبدو عليهم علامات الأسى، من يعرفونه هم أكثر المشيعين حزنًا، ومن لا يعرفون الميت الشاب يحزنون أيضًا؛ لأن الشباب لا يتركون معاشًا ولا ثروة خلفهم، فالحزنُ يكون عليهم هُم.

أما العجائز فلا يبكيهم الناس بصدق. يقولون: استراحوا، أو يتعجبون أصلًا حين يسمعون خبر الوفاة من أنهم كانوا أحياءً من الأصل! من يعرفونهم يقل حزنهم لانشغال عقلهم بإجراءات إعلام الوراثة وصرف المعاش، أو تقسيم التركَة، ومن لا يعرفون العجائز يحضرون الجنازة لأنهم تَصادَف وجودهم في مسجد صلاة الجنازة.

انتفض السيد من على السرير، لدغه خاطر أنه كيف سيعرف أولاده أنه مات؟ رقم الهاتف الموجود على تذكرته رقم ألِفه التمريض، والاسم الموجود على تذكرته اسم ابتكره التمريض أيضًا. وضعوا الاسم الأول لمدير المستشفى ونائبه ومدير الطوارئ. فكوّنوا اسم عبدالعزيز أحمد رضوان.

توجَّه السيد إلى جثمان خميس المغطَّى بالملاءة يتحدَّث معه.

"تخيل يا خميس. يمكن أن يعلم أولادي عن موتي من منشور على الإنترنت ينشره أحد العاملين هنا. يقول إن فلانًا مات عندنا واسمه كذا ولم يُستدل على أهله. سيدعو لي الكثيرون، ويتحسر آخرون على حال الدنيا، ويسب آخرون أبنائي الذين تركوني في أيامي الأخيرة، سأصير عِبْرة يا خميس. قرأت في الجامعة بيت شعر نسيت قائله يقول: سأصير يومًا ما أريد، أما أنا فأخبرك يا خميس: سأصير يومًا عِبْرة".

عقرب الثواني يكمل دورة تلو الأخرى، يجبر عقرب الدقائق على التحرك

خطوة بطيئة مع كل دورة يكملها. بعد ٧ حركات لعقرب الدقائق أشاح السيد نظره عن الذبابة وعن خميس. سحبه شيء عند طرف سريره، جسَدٌ يقف.

ارتدى نظارته ومسح عينه

"أهلًا يا نور. سنتين يا نور منذ آخر مرة رأيتك؛ جئت للمحكمة تخبريني ألّا أعلن أني حيّ، شغلتني رؤياك عن أن أثبت للقاضي أنّي ما زلت أتنفَّس، لم يملأ ماء البحر رئتي، وأعضائي ما زالت متصلة بجسدي، لم تتوزع في أمعاء سمك القرش كما يقول محامي التوأم. جئت يا نور لتُهدي القضية لأولادك ثم رحلتِ. لا أعرف هل أفرح لأني رأيتك أخيرًا، أم أغضب منك لأنك جعلتِني أضحِّي بحياتي".

تحرك الجسد الواقف تجاه السيد خطوتين ليتبين الكلام، لكن لم يزل كُنه الجسد غارقًا في ظلام الليل والغرفة. هز السيد رأسه ليؤمّن على كلماته السابقة. وألقى بعينه بعيدًا عن المكان الذي تقف فيه نور المتخيّلة، يتجنب عينها، ثم أكمل:

سلبتِ مني حياتي مرتيّن إذن، في المحكمة مرة، وقبل بداية حياتنا معًا مرة.

اقترب الجسد أكثر، لكن لم يلتف له السيد وأكمل:

"قرأت المذكرات، وعرفت أن قلبك لم يكن لي قبل الزواج. وبعد سنوات زواجنا تيقنت أن قلبك لن يكون لي كذلك. أجندة سوداء، صفحة موضوع أعلاها تاريخ الجمعة ١٤ إبريل. تركتِ أول أربعة أسطر في الصفحة فارغة، ثم بدأت الكتابة من السطر الخامس. "كمال، هذا هو اسمه" هكذا بدأت حديثك، وهكذا تلقيتُ الصفعة المباشرة. لا مقدمات ولا تخمينات، كانت الكلمات رصاصة في القلب لم تُنزع منه حتى اليوم يا نور".

شعر السيد بقطرة دافئة تتحرك على خده الأيمن، فرفع يده يمحوها سريعًا. الرأس الموجودة في الظلام خفضت نفسها قليلًا، ومال جذع الجسد تجاه السيد، لم يبالِ واستمر في حديثه:

"لم أفاتحك في الموضوع لأن الوقت قد فات، اكتشفت الأجندة في الكرتونة الثالثة، ضمن الكراتين الخمسة التي كتبتِ عليهم أشياء خاصة. أنفجر كلما أتذكَّر أنك شددَّتِ عليَّ أثناء نقل عزالك من بيت خالك لشقتنا أن أحرس تلك الكراتين الخمسة.

إكرامًا لتنبيهك، وضعتها في سيارة نصف نقل خاصة بها، لم يشاركها فيها

أي شيء آخر. وأصررت أن أركب معها في صندوق السيارة لأضمن ألا تصل إليها يدُ أحد.

حملتها بنفسي للغرفة. لكن دفعني فضول ملعون يا نور لأرى ما فيها. كانت الكراتين أخف من أن تكون أي شيء غير ملابس خاصة. دفعتني الشهوة لرؤية ما بها؛ الأولى ملابس، الثانية ملابس، الثالثة والرابعة والخامسة ملابس. رفعتها لأرصَّها، فحملت الكرتونةَ الثالثة بالمقلوب، فسقطت الملابس من فتحتها، ووجدت الأجندة بينها.

شيء أكثر خصوصية من ملابسك الخاصة، مدفون بينهم من الجانبين، تحتملين أن يرى متطفل ملابسك الداخلية، لكن لا تحتملين رؤية ما في الأجندة؛ "كمال، هذا هو اسمه". كان الأمر مباشرًا يا نور، أول صفحة أفتحها، أول كلمة أقرؤها، اسمه. جلست بجوار الملابس المتناثرة والأجندة على حجري، عيني على كمال. بدا الاسم طويلًا، ومهينًا. ما المميز في هذا الكمال دون غيره، كيف يصبح الحبر أداة للقتل عبر النطق بالكلمة. كمال، هذا هو اسمه.

لم أحتمل قراءة ما بعد الكلمات الأربعة. حتى الفاصلة التي وضعتها بعد اسمه أزعجتني. لا تتقنين علامات الترقيم وتسخرين من اهتمامي باللغة وقواعدها. تقولين لا تتحدث معي لغة أفلام الأطفال التي كنت تشرح بها للطلبة في المدرسة، لكنك لأول مرة تستخدمين الفاصلة. تنزهين اسمه عن كل ما يلحق به، كمال هو جملة قائمة بذاتها، كمال أصل الكلام ومبتدأه والمنعوت بكل ما يمكن أن يُقال.

عيني لمحت كلمات أخرى مكتوبة بعد الكلمات الأربعة. لم أدرك أني قرأتهم إلا حين أغلقت الأجندة، وبدأتُ في استعادة الحدث. تقولين له "رحلت دون تمهيد، تركتني وحدي" أذتني الكلمات يا نور، كنت سأقول لنفسي هى تركته لأجلي، رأت فيّ ما يميزني عن هذا الكمال. لكن حتى هذه الحيلة الواهية حرمتني منها

لولا كثرة الأصدقاء الذين جاءوا للمساعدة في رفع جهازك، لتجمدت في مكاني للأبد. ما زلت أشعر بأثر النار التي سكنت جسدي. كنت جالسًا حينها في غرفة الأطفال، البلاطة العاشرة من ناحية الباب، خطوتان واسعتان، أو خمس خطوات عادية، تضعك فوقها مباشرة. فيها خدش بسيط يسميه صنايعيّة السيراميك وحمة. يتحايلون لمداراة عيوب الصناعة بوصفها بالوحمة، عيب خلقي أو خلل جيني لا دخل لأحد فيه، ولا يحق لي أن أتهم الصنايعي

الذي ائتمنته على شراء السيراميك بأنه استرخص رغم أني دفعت له ثمن الأغلى.

كمال، فاصلة، هذا هو اسمه. مع كل كمال أقابله أنطق الجملة في ذهني بدون الكلمة الرابعة، كمال، هذا هو. أراك تقفين وتقدمين لي كمالك الخاص. كل كمال هو غريمي، كل كمال هو حبيبك، كل كمال يملك قلبك إلا أنا.

أعَدتُ الأجندة مكانها، وركَلتُ الصناديق الخمسة بجوار الحائط ورَزَعتُ باب الحجرة خلفي وانصرفت.

اقترب الجسد من السيد أكثر، فأشار السيد بكفِّه لنور أن تتوقف، ثم حرّك يديه يشير لها بالانصراف. لم ينصرف الجسد، لكنه خطا داخل دائرة ضوء القمر الذي غادرته السحابة الكئيبة.

انكشف وجه خلود الممرضة، أدركت أنها جاءت في لحظة غير مناسبة، فانصرفت. دون أن تخبره عن سبب دخولها للغرفة.

جذبت عينه واجهة أحد محلات الساعات. للحظاتٍ نسي أنه صار مينًّا رسميًّا بناءً على طلب أولاده، وشعر بالسعادة. كان هذا تأثير الساعات عليه دائمًا. تقدَّم نحو الواجهة مبتسمًا. يتحسس الساعات بأصابعه عبر الزجاج كأنه يلمسها حقًّا.

يعشق السيد ساعات اليد، ولا يعرف من أين ورِث أو اكتسب هذا العِشْق. لكنه في نظره عِشق فطري. قالت له أمه ذات مرة: يولد الأطفال ولا يعرفون شيئًا غير مسك الصدر، لكنك وُلدت وأنت لا تعرف كيف تمسكه، وأتعبنا اللف على النساء كي يُسكتوا صراخك، إلى أن تحنَّنت وقبلت صدرِي. لكن الحاجة الوحيدة التي كنت تعرفها منذ صغرك هي الساعات.

ابتسم السيد وهو يرى أسعار الساعات وعلاماتها التجارية. بإمكانه أن يشتري كل الساعات المعروضة في تلك الواجهة، لكن الموتى لا يبالون بالوقت، ولهم مفهومهم عن الزمن، فلا يظن أن الساعات العادية ستُجدي معه.

في صغره كانت الساعات تُجدي، تُخبره تاريخ اليوم، وساعة الأذان كي يقولها لأبيه، وكم بقي بالضبط على أذان المغرب في رمضان، وعدد الدقائق المتبقية على شروق الشمس كي تبدأ صلاة الأعياد. وحين اكتشف في محل خردوات على مدخل البلد الساعة التي بها آلة حاسبة تغيَّر عالمه.

ظلت الساعة في خياله، يحلم بدخول الامتحانات خِلسة بها فينجح نجاحًا مبهرًا في الرياضيات. لأجلها ادخر السيد كل الأموال التي تلقاها في العيد من أخواله وأهالي البلد. فور أن اكتمل ثمنها اشتراها. لم يُسمح له بدخول الامتحان بها، لكنّها قربت بينه وبين أبيه، وخلقت مجالًا للحديث بينهما. يطلب منه أن يحسب له سعر كيلو الأرز، وتكلفة شيكارة الكيماوي، وحساب الجرّار الذي حرث الأرض في ٢٥ دقيقة بالضبط.

حَزِن حين دخلها الماء فتعطلت؛ حُزنٌ اعتاده السيد مع الساعات التي يشتريها، فتح عُلبة حذاء قديمةٍ ووضع الساعة ذات الآلة الحاسبة بجوار أخواتها. ٣٢ ساعة بالتمام والكمال، سيصبحون ٣٧ في نهاية حياته. ينقل الصندوق معه في كل بيت ينتقل للسكن فيه، لكن نهمه لشراء الساعات خفّ بعد ثرائه.

كان حلمه أن يُجرب الساعات الفخمة المقاومة للماء، فيشعر أنه ثري فعلًا

حين يغسل وجهه والساعة في يده دون أن يضطر لخلعها. وأعجبته رؤية الأشخاص في المسلسلات ينامون وهم يرتدون الساعات، أو يرتدونها بمجرد أن يقوموا من على السرير، فحرص على شراء ساعة مقاومة للماء وخفيفة الوزن يمكنه أن يرتديها وهو نائم، ولم يكن يخلعها إلا بعد شعوره أن الأرق قد ذهب وبدأ النوم يتقدم نحو عينيه.

عايرته نور أنه كالطفل ينام بملابس العيد، وصرخت فيه لأنه يرتدي ساعة بلا فائدة لمجرد أن لديه عُقدة نقص تجاه الذين يرتدون الساعات الفخمة. لم يرد عليها لأنها أقصر الطرق كي لا تطعنه بكلامها أكثر، لكنها استمرت قائلة إنه لا ينظر فيها ليلًا، ولو نظر فلن يرى شيئًا.

في نفس الليلة انتظر السيد لحظات ظلام الغرفة ونظر في الساعة فلم يجد شيئًا. ارتدى ملابسه وخرج لتوكيل الساعات الذي يتعامل معه، وطلب ساعة يمكنه الرؤية خلالها في الظلام.

رفض الاقتراح الأول بالساعة السوداء تمامًا والتي تضيء عند الضغط عليها، ويمكن ربطها بالهاتف كذلك. لم يعجبه ذلك الشيء، هو جيد، لكنه ليس ساعة. قالها السيد للرجل، فضحك صاحب المحل، فأكمل السيد أريد ساعة.. ساعة. الساعة عند السيد يجب أن تكون عقارب، ورأسها دائرية، وسوارها من المَعْدِن الفضي. قدّم له الرجل الساعة التي يريد وأخبره أن عقاربها تضيء باللون الفسفوري في الظلام.

عاد بها إلى الغرفة حيث نور نائمة، فوجد العقارب تضيء فوجَّهها لعينها وحرَّكها أمامها. قامت منزعجة من النور. وجدت السيد يرتدي ربطة العنق ففهمت ما حدث. استدارت لتعود لنومها قائلةً: هكذا تظن أنك لست طفلًا؟ لم يبالِ السيد بكلامها وقرَّر أن تلك هي الساعة المختارة التي ظل يبحث عنها طوال عمره؛ فيها كل شيء، حتى إنها تعمل ببطارية تشحن بالطاقة الشمسية، لذا لن يُضطر لتغيير حجرها أبدًا.

رفع يده اليُمنى -حيث يحب لبس الساعة- لِعَينهِ أمام واجِهة المحل، مخاطبًا إياها: اشحني الآن فهنا توجد شمس، ولا أعرف كيف تبدو شمس الموتى.

خرج صاحب المحل ليتحدَّث مع الرجل الذي يحدِّق في الساعات منذ مدة، فليشتري أو ليزح نفسه عن الواجِهة. سأله صاحب المحل عن الساعة التي يُفضلها؛ فأجابه السيد أنه يشاهد فحسب. يبدو عليه علامات الثراء، والساعة التي يلبسها قديمة الطراز لكنها فخمة.

قال لِه صاحب المحل: يبدو أنك مُعجب بالساعات، ابتسم السيد قائلًا:

بالطبع أحبها، ومن لا يحب الساعات، هي ذَهَب الرجال الحلال؟ سأله الرجل: هل لديك خبرة بأنواعها؟ قهقه السيد لأول مرة منذ زمن، استاء صاحب المحل، لكنه انتظر تفسيرًا من السيد فلم يفعل. انصرف صاحب المحل وعاد لمكانه إيثارًا للسلامة، فهذا إما مجنون أو شخص مهم، وفي الحالتين فلينصرف بمفرده.

أغمض السيد جفنه يطرد الدموع التي تتكون ببطء في عينيه؛ جفنه ثقيل لا يريد أن ينفتح مرة أخرى، فمد يده إلى الكومود يبحث عن النظارة، وضعها وضغط على عينيه يغلقهما أكثر. ابتسم متذكرًا كلمة زوجته، أنه في لحظات التوتر يلبس النظارة ليرى نحو الداخل لا الخارج.

مد يده يسحب الغطاء من طرف السرير وغطَّي جسده كله. لم يعد ظاهرًا إلا رأسه، أمال رأسه يستند إلى الجدار يتذكر ملامح القاضي. مفارقة عجيبة أنه لا يستطيع الوصول لذكرى رؤيته لنور إلا عبْر تذكُّر القاضي.

العقل الذي كان يخلق الخيالات، ويرسُم حياة كاملة لكل وجهٍ في قطار الثانية والنصف، لم يَعُد يستطيع الوصول لمنتصف ذِكرى مباشرة. لا بد من تجرُّع المرارات التي سبقتها كي يصل إليها. لكن نور تستحق، ومجرد استحضار طيفها يستحق كل المسامير التي تنغرس في قلبه حين يتذكر القاضي.

ملامح القاضي المتغيّرة مع كل كلمة يقولها محامي توأمَيْه، كانت تحكي للسيد عن قسوة الكلام. يشير المحامي بيده كثيرًا؛ شعره الجاف يهتز من انفعاله الشديد، لا يسمع السيد كلام المحامي، يشاهد الجلسة كأنه في قفص زجاجي مليء بالماء، لا يصله الصوت لكنه يرى الصور. محامٍ منفعل وقاضٍ متعاطف. لا يحتاج أكثر من ذلك ليفهم أن كلام المحامي مؤثر. أغلق عينيه يحاول ألا ينظر إلى الصف الأول من المقاعد الخشبية حيث يجلس الخصوم، أولاده.

أغلق جفنه العلوي فانفتحت أبواب أذنه، عقله المُروَّض على الهرب من عقارب خسائر السوق لا يعرف أن يبقى معزولًا عن العالم لثانية. رسم ضحكة على وجهه وهو يتذكر نور تُعايره بداء سرعة القذف الذي أصابه لعدة شهور بعد الأربعين، بأن عقله لم يَعُد يحتمل البقاء معزولًا عن السوق ولو بضع ثوانٍ. لم تعد معايرة نور تؤذيه، فكان يعلم أنه هو من يحاول الخلاص من لحظتهما الحميمة بأسرع ما يمكن.

لكن تفسيرها كان يضحكه؛ لأن له وجاهته؛ فمحل الأجهزة الكهربائية الذي بدأه بما تبقَّى من أموال الفدان، تحوّل لسلسلة محلات، ثم توكيل لعلامات تجارية شهيرة. وانتقل من الأستاذ السيد صاحب المحلات إلى السيد بيه رجل الأعمال.

في ظلام عقله استعاد رؤية الأدلة التي قدَّمها أولاده. رأى السيد التوقيع على صعود العبّارة، فأدرك على الفور أنه خط ابنه الأكبر. اسم السيد عزت محروس أسفل كلمة المسافر لكن التوقيع مزور، ابنه الذي زوَّره. أحنى ظهره بضع سنتميترات إضافية ليزداد الانحناء الموجود بفعل الزمن، كأنما يستعد ليحمل حملًا ثقيلًا.

توقيع الابن المزوَّر على صعوده للعبَّارة كان كفيلًا بإتمام قضية إثبات الوفاة. لكنّهم دعَّموا أركان القضية بمحاضر البحث عنه التي لم تُوفق لإيجاده. وشهادة البواب وبضع عمال من الشركة الذين شهدوا صادقين أنَّهم لم يروه منذ يوم العزاء. القضية كانت مجرد فصل أخير في مسرحية كان السيد مخرجها دون أن يدري. وطعنة أخيرة من التوأمين لم تكن مُستغربة منهما، لكنه حَمِد لهما أنها ليست قضية حَجْر لزوال عقله، أو سوء سلوكه.

لم يحتمل السيد كلمات محامي أولاده التي تؤكد أنه مات وصار طعامًا للقروش، ففتح عينيه ليُغلق أبواب أذنه، ويكتفي بمشاهدة الرذاذ المتطاير من فم محامي الخصوم. رأى قوس قزح يحيط بذلك الرذاذ المتطاير، حين يمر به شعاع شمس ضئيل يتسلل لقاعة المحكمة من كوَّةٍ صغيرة مفتوحة استعدادًا لمرور خرطوم تكييف ربما. كأنما أراد قوس قزح أن يكون شاهدًا على تلك اللحظة التي يبلغ فيها قاع الحياة، بعد أن شهد مع السيد لحظات الذِّروة.

وجَّه نظره إلى الطرقة وشرد قليلًا.

فتح السيد عينيه، أزاح الغطاء عن جسده كأنما شعر بالدفء المفاجئ، والتفت لخميس:

"نور كانت هناك، رأيتها جالسة في الطرقة بيني وبين الأولاد. كانت دائمًا توجِّهني في الأمور الاجتماعية. أخبرها أني أحمل دكتوراه حياتيّة في إدارة الأعمال، وماجستير من السوق في الاقتصاد والعلوم السياسية، وبكالوريوس رسمي من كلية الآداب جامعة القاهرة، وأستطيع تقرير ما هو مناسب.

تضحك وتقول: قلتها أنت بنفسك، العلوم السياسية، أما العلوم الاجتماعية فأنا الدكتورة فيها، والحقيقة أن النسخة الأولى من نور ساعدتني في تكوين شبكة علاقات ضخمة بمورِّدي الأجهزة، لكن النسخة الثانية منها دمرت كل علاقاتي الاجتماعية، فلم تظهر نور معي في مكان إلا وامتنعت عن الذهاب إليه ثانيةً وللأبد.

في المحكمة رأيتها لأول مرة منذ رحيلها، سنوات وأنا أتمنى أن تأتي لزيارتي، أُريد أن أسألها السؤال الذي لم أقوَ على سؤاله لها في حياتها.

لكنهم يقولون إن الموتى يحبون زيارة الغرباء في الأحلام. وكبار السن يقولون إن الميت لا يذهب لأحبائه. وحالتي كفاقد للأم والأب، والزوجة والابن، أصبحت دليلًا عندي على صدق كلامهم.

كانت تجلس في الطرقة، ترتدي طرحتها الخضراء. لم تكن تحب ارتداءها، وأنا أكره تغطيتها لشعرها؛ شعرها ينتهي بعد كَتِفها بقليل، نعومته صناعية في معظم الأوقات، لكن لا أحبها أن تخفيه. رؤية شعرها هي الشيء الوحيد الذي يثبت لي أني لست غريبًا عنها. وأن لي منها ما ليس للبواب وفتى التوصيل وكمال وباقي الرجال. لكن بعد العملية أصبحت ترتديها لتساعدها على تحمُّل الصداع".

استمر في التدقيق فرأى انعكاس صورته في الزجاج. جَفل وارتدَّ للخلف فاصطدم بأحد المارة. بادر السيد بالاعتذار المتكرِّر، نظر الرجل للسيد غاضبًا وانصرف وهو يواصِل السُّباب في الأعمى الذي كاد يكسر البيض. عاد السيد إلى التدقيق فخلَع نظارته، ابتسم وهو يتذكر سُخرية نور: الوحيد الذي يخلع نظارته كي يرى الخارج.

دقَّق السيد النظر في الزجاج. السواد أسفل عينيه، وشعر رأسه الذي انحسر، جذب عينيه أولًا، رفَع يده يلمسُ شعره وشعَر بالمِنطقةِ الخالية منه، فرأى في الزجاج ظلًّا خافتًا للمقهى، تعلوه اللافتة، شهود الزور؛ اللافتة فوق رأسه، أنا شهود الزور، السيد شهود الزور، خبط السيد على رأسه كأن صاعقةً ضربته وهو يردد: "أنا شهود الزور".

ارتدى نظارته، وأخذ يهرول تجاه شارع البحر ليفرّ من اللافتة ومن المقهى. رأى العصّارة الموجودة عند تقاطع شارع البحر وشارع طه الحكيم، تقدم ليشرب كوبًا من عصير القصب. لم يذقه منذ خمسِ سنواتٍ أو يزيد، طلب السيد كوبًا كبيرًا، ودفع للرجل ١٠ جنيهات المتبقية من ٣٠ جنيهًا أعطاها له الخفير للمواصلات.

أخذها العامل ودفع إليه دائرة بلاستيكية زرقاء، أخذها دون أن يسأل عن الباقي ومدّها إلى الصبي الواقف أمام العصّارة، بضع ثوانٍ ومدّ إليه الصبي كوبًا ضخمًا من العصير تعلوه الرغوة التي يحبُّها. تناول الرغوة ببطء، ثم أبعد الكوب عن فمه بسرعةٍ بمجرد أن لامس العصير البارد شفتيه؛ طعم العصير البارد، والكوب النظيف، والشرب دون أن يشعُر بشَعْر شاربه على لسانه، كلها أشياء جعلته يَنفرُ من العصير. اعتاد الماء المختلط برواسب الأرض والصدأ، يرفعه في كفِّه ليشرب فيشعر كأنما يأكل شاربه.

تنهَّد، واضطره الجوع إلى رفْعِ الكوب مرة أخرى يحاول أن يرشف منه أي شيء. أخذ رشفتين، ثم تذكَّر موته الرسمي، فرزَع الكوبَ على الرخام المُبلل بالمياه؛ نهره الفتى الواقف أمامه وسحب منه الكوب الممتلئ. ناداه الكاشير وأعطاه ٣ جنيهات مَعدِنية مبتلة ودفعه بيده لينصرف بعيدًا عن العصارة. وضعها السيد في جيب البنطلون الأيمن وانصرف.

السور الحديدي الذي يفصل بين جانبي شارع البحر، لم يكن موجودًا قبل ذلك، ولا يعرف السيد متى وُجد. لكنه يعرف أنه مضطر للمشي مسافة

شارعين كي يجدَ منفذًا يعبُر منه للجِهة الأخرى حيث موقف الأتوبيس. الجنيهات الثلاثة لا تكفِي لأيِّ وسيلة مواصلات أخرى؛ لذا عبر وانتظر أتوبيسًا به فراغ يكفي لوضع قدميه. مرّ الأتوبيس الأول دون أن يتوقف، بعد خمسِ دقائق مِن حرِّ الشمس على رأسه مر الأتوبيس الثاني، نادى الكمساري في الواقفين ليركبوا، مؤكِّدًا أن هناك مكانًا فارغًا في الخلف.

تحرك السيد ببطء ليركبَ، لا يرى مكانًا فارغًا لكن الكمساري كان ينظُر له في عينيه مباشرة فتوتَّر، خطوات السيد الهادئة جعَلت الكمساري ينفعل مطالبًا السائق بالتحرُّك. لا يُدرك السيد أنه يتحرك ببطء؛ لذا تعجب من كلمات السُّباب التي لحِقته.

عاد ينتظر على كنبة خشبيةٍ فوقها مظلة معدنية صنعها ولَد صالح كصدقةٍ جارية عن أمِّه، مدّ عينيه فرأى الأتوبيس القادم عند أول البحر، مسافة قصيرة، لكن زحمة المرور في الثانية ظهرًا جعلتها مسافة لا نهائية. اختناق المرور جعل السيارات كأنها تتحرك ككتلة واحدة، الحركة الوحيدة التي يراها هي أبواق السيارات وأصوات الزحام، تتحرك كموجة تُولَد من الأُفق وتموت في عقل السيد بعد أن ترتطم بأذنه فتفزعه.

يكره السيد الصوت العالي، الخِصلة الوحيدة التي يكرهها في أبيه أنه كان لا يسمع الراديو أو التلفزيون إلا بصوتٍ مرتفع. لم يُصلِّ السيدُ الجمعة أبدًا في المسجد القريب من بيته؛ لأن الخطيب كان يرفع صوته بلا داعٍ. وازدادت الفجوة بينه وبين النسخة الثانية من نور حين بدأت تتعمد رفع الصوت بلا داعٍ؛ سواء في الشارع وهي تتشاجر مع كل الناس، أو في السرير أثناء علاقتهما الحميمة.

بعد دقائق من الانتظار أصبحت الضوضاء المتواصلة ضوضاء بيضاء. حذفها عقل السيد من المشهد فبات يرى سيارات تزحف ببطء صامتة. عينه مفتوحة وأذنه مفتوحة، لكن عقله غير موجود في اللحظة الراهنة، فلا يُفسر ما ترسله إليه الحواس.

الأتوبيس الثالث وصل أمامه ولم يُدرك السيد أنه رآه، وقف أمامه ينادي "سِبرباي سِبرباي"، لكن لم يسمعه. عين السيد المفتوحة على الكمساري أربكت الكمساري؛ ناداه مباشرة: سِبرباي يا أستاذ؟ لكن السيد لم يتحرك.

تجمَّد السيد مكانه، إذا كان من الممكن وصف شيء بالتجمد في هذا الحر وذلك الازدحام. جلس ينتظر أتوبيسًا والأتوبيسات تمرُّ أمامه دون أن يُدركها عقله. يئس من الانتظار فقام يتمشَّى نحو مستشفى الجامعة، أمامها يقف

العديد من الميكروباصات.

بضع خطوات وخطفت عينيه فتاة ترقص الباليه في الشارع، رآها تتمايل قادمة من خلف مجموعة من المارَّة. فتح عينيه متعجبًا، في شوارع طنطا أصبحت البنات ترقص باليه! تلاشى عجبه حين ظهرت الفتاة أمامه، كانت تجري على حذاء بكل ناحية منه أربع عجلات، تدفع قدمها فيتحرك العجل ويجري بها، وهي تُمايل جسمها كي تحفظ توازنها.

حذف عقلُ السيد الحذاءَ ورآها راقصة باليه على مسرح الأوبرا ترتدي فستانًا أبيض قصيرًا، ويسقط مخروط من الضوء عليها، فتصبح ملاكًا أبيضَ في مسرح أسود محاط بالسواد.

رفع يده اليُمنى يتحسس كتفه الأيسر. فالأوبرا من الأماكن التي أخبرته أن نور تغيّرت.

دخلت ممرضة لم يرها السيد من قبل؛ عيناها بها شيء مختلف، كل عين لها لون. سمع من قبل عن هذه الحالة الطبية لكن رؤيتها أمرٌ آخر. لو أنه من الممكن أن يتقاتل الناس على لون العين لدفعت امرأة عمرها لتحصل على عين زرقاء. وستدفع أخرى عمرها للحصول على عين خضراء. لكن هذه حصلت على الاثنين دون أن تُقاتل أو تدفع شيئًا.

اقتربت من السيد فابتسم. قالت تسأله: أنت عبدالعزيز. نفى وعينه لم تتحرك من عينها. ضحكت وقالت مقرِّرة السؤال: أنت عبدالعزيز. تناولت كتفه الأيسر ورفعت الفانلة النصف كم التي يرتديها. لاحظت تركيزه في عينها فقالت: حالة طبية نادرة تُدعى... قاطَعَها قبل أن تقول الاسم العلمي قائلًا: بل هَدية من القدر لنا. أحيانًا يكون كل حظنا من الدنيا هو لحظة البداية فقط، الجينات التي تشكِّل أجسادنا. ابتسمت قائلةً: قالوا إنك لا تتحدث كثيرًا.

سكت السيد. قالت: هذا تطعيم الإنفلونزا، هناك بعض الحقن التي رفضها الزملاء، لكن لا يمكن إعادتها للوزارة. جذب السيد ذراعه بعفوية، ضحكت بصوت مرتفع، قائلةً: وحياة الجثة التي ترقد معنا الحقن آمنة. بعض الزملاء لا يؤمنون بالتطعيمات عمومًا. لكن التلقيح بها إجباري فيوقِّعون أنهم أخذوها، وأتخلَّص منها.

قال السيد: تخلَّصي منها إذن؛ ردّت عليه: حرام إلقاؤها في القمامة وسعر الحقنة في الخارج بمبلغ وقدره. كما أن بيعها للصيدليات فيه شُبهة لِي ولا أُريدها. قدّم لها السيد ذراعه فأعطته الحقنة.

خرجت وأغلقتِ الباب بهدوء، رفع السيد يده اليُمنى يتحسَّس ألم الحقنة. ذكَّره الألمُ بألمٍ سابق. تستدعِي الآلام بعضها كأنها محفوظة في ملفٍّ واحد داخل المخ. يكفي شكة إبرة بسيطة في عمر الستين لاستدعاء آلام الخِتان في الأيام الأولى للرجل، أو ألم ثقب أذن طفلة. لكن مكان الحقنة ذكَّره بألمِ لدغة نور.

بعد شهور بسيطة من خِطبتهما قالت إنها سمعت في الساقية كثيرًا عن دار الأوبرا، والباليه، والمسرحيات الكلاسيكية. وأنها متشوقة لرؤية ذلك المكان، ورؤية كيف يبدو الرجال المتأنقون والنساء اللاتي يرتدين الفساتين السوداء. في اليوم التالي مباشرةً حجز لها السيد عرضًا لفرقة روسية تؤدي الباليه على مسرح دار الأوبرا.

خرج الاثنان لشراء بدلة سوداء جديدة وفستان أسود لنور. اتفق السيد مع صاحب سيارة ملاكي في البلد لتوصيلهما للأوبرا. دخلت نور المكان مبهورة بكل شيء، حتى الكراسي أبهرتها. جلسا وانطفأت الأنوار وبدأ العرض، فنام الاثنان.

أيقظتهما أصوات التصفيق في النهاية؛ ضحِكا على جهلهما بمعنى ما يُقال، وقررا أن الأوبرا ليست لهما. سيحضران حفلات غنائية ويدخلان السينما، أو حتى يأتيان للأوبرا إذا كانت ستُعرضُ عليها مسرحية، لكن أوبرا وباليه لا. تعامل السيد مع الأمر بخِفّةٍ، ضحكا ثم ذهبا إلى المطعم الذي حجز فيه مسبقًا.

جلست نور في السيارة أثناء العودة مُتجهِّمة؛ تسكت حينًا ثم تنطق: لكننا لسنا أقل منهم، نحن خريجو جامعات، ومستوانا المادي محترم، ولدينا عقول سأتعلم كيف تفهم تلك الشعوذات ونعود مرة أخرى. ضحك السيد لكلامها ونظر إليها فوجدها انفعلت أكثر من ضحكه، فتراجع عما سيقوله وأخبرها أنهما سيعودان، بالطبع سيعودان.

بعد فترة أخبرته نور بأنها جاهزة للعودة إلى الباليه، فقد قرأت كل ما يتعلق به وحفظت معاني الجُمل التي يقولونها، أخبرها السيد أن الفِرقة لا تأتي إلّا كلّ عام أو ربما عامين، وسيحرص أن يحجز لهما فور وجودها في مصر.

ابتعدت الفتاة الراقصة عن عين السيد ودخلت إلى شارع جانبي، عاد بعينه لينظر ناحية مستشفى الجامعة، فرأى سِربًا من الراقصين يخرج من حيث خرجت الفتاة. فكَّر أنه ربما أضحى الحذاء ذو العجلات هو الحذاء الرسمي الجديد لهذا الجيل.

يختار كل جيل شيئًا ما؛ مظهرًا للشعر أو طريقة لبس أو مصطلحات جديدة ليضع بها حدًّا بينه وبين الأجيال التي سبقته، ويجعل من نفسه قدوةً للأجيال الأصغر. فربما اختار الجيل الحالي حذاء العجل ليضع هذا الفارق بينه وبين العواجيز، حتى وإن كانوا في العشرينات، لكنهم لا يستطيعون حفظ توازنهم على هذا العجل.

لمح السيد من بينهم فتاة شعرها يميل للأحمر؛ ضحك وعاد يتحسَّس كتفه، يتذكر حين علمت نور أن فرقة الباليه مُتاحة في مصر مرة أخرى. كان عمر زواجهما عامًا أو يزيد قليلًا.

عام ولم يزل السيد ينتظر في داخله نُطقه بالحكم على نفسه، هل قتل أباه متعمدًا أم كان قتلًا خطأً؟ لا احتمال وحيدًا يمنح السيد البراءة الكاملة،

انشغاله بالاتهام أنساه مُتابعة أخبار الباليه.

لكن نور لم تنسَ، صرخت فيه وهو عائد من العمل يومًا ما أنَّه لا يُعتمد عليه، ولا فائدة منه. لم يعُدِ السيد يتعجب حين يُقابَل بتلك الرصاصات كلما جاء أو رحل، فسألها عن السبب وهو يتوجَّه نحو الجزّامة ليضع حذاءه فيها.

قالت: إن فرقة الباليه في مصر، وقد حجزتُ لنا بعد يومين. أخبرها السيد أنه لا يريد أن يذهب؛ علَّل كلامه بأنه لن يكون سعيدًا بوجوده في شيء لا يفهمه، وحتى لو فَهمه فلم يعُد باله رائقًا لهذه الأشياء. قالت له نور إن بينها وبينهم ثأرًا ويجب أن تقتصَّ منهم. جلس السيد على كرسي السفرة قائلًا: لا تُضخِّمي الأمر. اقتربت نور منه قائلةً: أنا ذاهبة وستأتي معي لتقود السيارة.

أقصر الطرق للفوز مع نور هو الهزيمة، هكذا اكتشف السيد، وهكذا يتعامل معها: حاضر، وسأفعل، وبالتأكيد. لا يرفض طلبًا، ولا يمتنع عن فعلٍ، ولا يُخالفها في رأي.

في داخل الأوبرا جلسا مرة أخرى، الفرقة تتحرك ونور تهمس له بالمعاني التي يقولونها ودلالات الرقص. ثم تنظر لعينه كل حين لترى هل لا يزال معها أم نام. في مرة وجدت عينه معلَّقة براقصة حمراء الشعر. طرقت على ركبته فلم ينتبه لها، فلدغته بسبَّابتها وإبهامها في كتفه اليسرى. القَرص كان طبع نور منذ تعرَّف عليها، لكنها كانت تمارسه بدلالٍ. أما الفترة الأخيرة فبدأت تستخدمه مع كل أحد وفي كل وقتٍ. تضع قطعة صغيرة من لحم الكتِف أو الفَخِذ بين إصبعيها، ثم تُديرهما وهي تسحب نحو الخارج.

انتفض السيد واقفًا، مدَّ الجالسون حوله أيديهم يطالبونه بالصمت والجلوس. قامت نور من مقعدها وتوجَّهت لهم بالسباب. أمسكها السيد من ذراعها يُجلسها فلم تجلس. واستمرت في الشتم دون توقُّف؛ لم يرد أحد عليها من الناس، لكنها لم تتوقف.

جلس السيد في كرسيّه يكاد يبكي، وضع يده حول رأسه بانتظار توقُّفها. يتكرر هذا الأمر معها كل بضعة أيام مؤخرًا. لأبسط سبب تشتعل وتأخذ في لعن كل شيء وكل من يقف أمامها، ومهما حاول السيد إسكاتها فلا تسكت إلا بعد عدة دقائق. وكل تدخُّل من السيد يجعل دورة السب تبدأ من جديد، فتعلَّم أن يترك الأمر حتى ينتهي وقتما ينتهي.

لكن في صمت الأوبرا وأناقتها توقَّف الراقصون، لا يفهمون السباب، لكن الصوت ارتفع فبدأ الآخرون يهمهمون يطالبون بتدخل الأمن. دخل أفراد من إدارة المكان وحاولوا جرَّ نور للخارج لكنهم لم يستطيعوا، فاحتضنها السيد

بقوة وحملها للخارج.

لا تتوقف عن السباب فوضعها على مَقربة من الباب الخارجي للدار، وعاد لأفراد الأمن والإدارة، أعلن أنه مُستعد لأي تعويض ماديٍّ أو معنوي، وأخبرهم أنها مُصابة بالصرع وأحيانًا تأتيها النوبات على شكل تخيُّل أشخاص وسبِّهم. صدَّقوه فورَ أن نطَق بالكذبة التي لا يعرف كيف ومتى اختلَقها، لكنهم صدّقوه فما رأوه لم يكن أمرًا طبيعيًّا.

عينه تراقب كل ركن في المكان، ليست أول مرة له فيه، دخله سابقًا مع أحد أصدقائه ليشتريا بدلة خطوبته. لكن هذه أول مرة يدخله السيد وهو يملك مالًا يمكّنه أن يشتري كل شيء في المحل بعد بيع الفدان يتمشى في المكان يقرأ أسعار الجواكت والبناطيل ويضحك، يمكنه أن يشتري ملابس جديدة لكل يوم من أيام السنة.

بلاط المكان اللامع يحتك بحذاء السيد فيُصدر صوتًا بسيطًا، لم يلاحظه أحد الموجودين لكن السيد انزعج منه. ظل يراقب كل خطوة يخطوها فلاحظ أثر الحذاء الأسود على السيراميك اللامع، فازداد إحراجه. لم يشعر بهذا الحرج يوم دخل مع عبدالرحمن، لكن حينها كان السيد يُعرِّف نفسه بأنه ليس من الطبقة التي تشتري من هذا المكان، فهو لا ينتمي إلى هُنَا، فلا بأس من أن يقع منه أي شيء.

لكن هذه المرة يريد أن يكون من أهل هذا المكان؛ تحركهم بأريحية، حديثهم المُنطلق وصوتهم الناعم ضايقه. شعَر بأنه لن يكون من تلك الطبقة مهما فعل، فهم كذلك لأنهم وُلِدوا كذلك. أما السيد فالفقر وسنوات الشقاء قد حفرت آثارها على ملامحه الملفوحة بشمس المواصلات والمليئة بعرق التنقل والسعي، وصوته صار ثقيلًا أجشَّ من سنوات العمل كمدرس بالحصة والعمل في المطعم قبله.

توجَّه إلى أقرب مقعد فجلس عليه يحاول الهروب من أفكاره. استجمع شجاعته بعد دقائق وقرر القيام والتصرف بحرية. سيخرسهم جميعًا حين يقف أمام موظف الحسابات ويدفع آلاف الجنيهات ثمنًا لبعض الملابس عبر الفيزا. حينها سيدركون أنه أغنى منهم، لكنه فقط لا يبالي بالمظهر.

مع أول رفعة قدم صدر الصوت مرة أخرى من حذاء السيد، فانهزم أمامه وانصرف خارج محل الملابس، وقف في طُرقة المركز التجاري يُفكر في العودة. لكنه استغرق وقتًا لينتقل من قريته إلى هذا المركز على طريق المحلة. ويريد شراء ساعة وحذاء وسماعة وهاتف جديد وملابس وأدوات حلاقة، وقائمة طويلة كتبها السيد في رأسه. وهذا المركز هو أقرب مركز تجاري له يوفر وجود كل تلك المحلات على بُعد خطوات من بعضها.

خطف عينه محل الموبايلات الموجود مقابل محل الملابس، يحب السيد الموبايلات، ويحب فكرة القدرة على تغيير الموبايل كلما أصبح الإصدار

الأحدث متاحًا. لم يغير السيد هاتفه إلا حين يتعطل ويصبح من المستحيل إصلاحه، لكنه سيكتشف بعد امتلاكه للمال أنه يفعل ذلك تعلقًا بأشيائه القديمة، لا لأنه فقير.

مشى السيد نحو المحل ليشتري سماعة بدون أسلاك، تفتنه تلك القطعة الصغيرة التي توضع في الأذن، وتلتقط الموسيقى من الهاتف وتُرسلها لأذنك، وتلتقط كلامك وتنقله للطرف الآخر، دون أن يضيع أي حرف منه أو من الموسيقى في الهواء. دفع ثمنها واستدار ناحية محل الملابس، لمح إحدى الموظفات فيه ترتدي الزي الموحد وتتحدث مع زبون بابتسامة ودودة وتقترح عليه ملابس ليختار منها، رؤيتها جعلت السيد يحسمُ تردده، سيدخل المحل مرة أخرى، وسيتربص لحين تفرغ هذه الموظفة ليتحدث معها.

مجرد أن أرشدت الموظفة زبونها إلى الحسابات دخل السيد، فتقدمت نحوه بنفس الابتسامة تسأل: معك نور.. كيف أساعدك؟ أسنانها متراصَّة وشفتاها يعلوها اللون الأحمر. عينها مكتحلة وحاجباها ثقيلان لكنهما مشذبان كموجة تحاول الارتفاع لكنها سريعًا ما تنخفض.

كررت السؤال فأفاق السيد: أريد سماعة؟ ضحكت وقالت: السماعات في المحل المقابل، وأنت تملك واحدة في يدك كما أرى. ابتسم السيد ببلاهة قائلًا: أريد ملابس، أريد جلبابًا. بدأت ابتسامتها في الخفوت وقالت: للأسف هنا ملابس عادية فقط، الجلاليب يمكن أن تصنعها عند أي ترزي في القرية المجاورة.

بلع السيد ريقه، فقد أدرك الآن ما قال في الجملتين السابقتين، تنحنح قائلًا: أعتذر، حرارة الجو أفقدتني تركيزي، أريد شراء عدد من القمصان والبناطيل وبعض الملابس القطنية تتناسب مع مناخ السعودية.

استدارت لتنادي زميلها كي يتولى مساعدة السيد، لكنها توقفت ونظرت للسيد مرة أخرى. كان واقفًا أمامها يداه منسدلتان كتلميذ أمام أستاذه، وعينه ترجوها أن تتحدث معه. أشارت له نور أن يرافقها، مشى بمحاذاتها، كانت تُعدُّ نفسها للتهرب من زبون آخر متحرش. فالتكييف المركزي في المركز التجاري يجعله أشبه بالقطب الشمالي والباشا يقول حرارة الجو. لكن مظهر السيد وارتباكه أضحكها، شعرت أنه صادق في ارتباكه.

عرضت عليه نور بعض القمصان فأخذ السيد يعود لعقله شيئًا فشيئًا بعد أن أكمل فحص جسدها. أخبرها السيد بشكل صريح أنها هي المرة الأولى التي يشتري فيها من هذا المكان، ولا يعرف كيف يختار المقاسات هنا. فالمقاسات

التي تتحدَّث عنها نور مختلفة عن المقاسات المعتادة. في تلك اللحظة أدركت أنه مُحدَث ثراء، فتبسطت معه نور وتفهَّمت رهبته، أخبرته أن هكذا كانت حالتها حين دخلت للمركز أول مرة، ورأت هؤلاء الناس يدفعون مبالغ كبيرة في أشياء متاحة أرخص كثيرًا بالخارج، لكنها تحتاج دقائق إضافية للبحث ومقارنة الأسعار. وافقها السيد، وقال إنه يريد أن يشتري من هذا المكان تحديدًا لأبيه أفضل ملابس داخلية ممكنة كمكافأة له على تعبه طوال السنين الماضية.

ابتسمت نور فشخصية السيد تتكشَف لها تِباعًا، ردت بأنه من الجيد أنه يوجد آباء يستحقون ذلك. ضحك السيد وقال: تقصدين وجود أبناء ينتبهون لآبائهم، فردت نور مؤكدةً على ما قالته، وجود آباء يستحقون اهتمام أبنائهم بهم.

هربت نور من الاستغراق في الحديث، فزادت جاذبيتها في عين السيد. قدمت له بنطالًا تراه مناسبًا له، فوضعه السيد في سلة التسوق دون تردد. الملابس وعملية التسوق كلها أصبحت هامشًا الآن في عقل السيد، المتن هو نور. كان ينوي شراء قميصين و٣ بناطيل، لكنهم أصبحوا ٥ قمصان، و٤ بناطيل، وحزام جلد، والعديد من الجوارب. ونسي أن يشتري شيئًا لوالده.

تقدّمت نور لترشد السيد للكاشير، فوقف وأخرج الفيزا من جيبه ليحاسب. كان المشهد في ذهنه مغريًا ومبهرًا، لكنه حين استدار وجد نور قد تقدَّمت لزبون آخر، لكنها كانت تراقب انعكاس صورته في المرآة التي أمامها. طال نظره نحوها فاستعجلته السيدة التي تقف خلفه في الطابور، فانصرف السيد من باب الخروج بعد دفع الحساب.

استدار حول المكان، وعاد للباب الرئيسي وتقدم نحو نور ليخبرها أنه أعجب برأيها في الملابس ويريد أن يستشيرها في السماعة التي في يده، هل لونها مناسب مع الملابس، أم تنصحه بشراء واحدة أخرى؟

أمسكت نور السماعة وقالت إنها لا تُعجب بتلك السماعات الخالية من الأسلاك. هي أفضل لأن الأسلاك لا تتشابك، لكنها لن تكون مناسبة لشاب يتحرك كثيرًا؛ لأن ثباتها قليل. اقترحت عليه سماعة تبدو كنصف قوس توضع حول الرقبة ويخرج منها سماعتان بسلك قصير، وتتصل بالهاتف عبر البلوتوث.

قالت: إن تلك السماعات هي أفضل ما قد يتوصَّل إليه البشر في السماعات، فلا أسلاكها تتشابك، ولا تقع مع الحركة. استمع السيد لكلامها،

وتوجَّه إلى المحل المقابل، فغيّر السماعة بأخرى كالتي وصفتها. لمحته نور وهي تقف في مكانها، فابتسمت وهمست لنفسها: سهل الانقياد أيضًا، وأكملت مع زبونها الواقف.

جلس السيد على كرسي في الطُّرقة أمام محل الملابس يراقب نور. أرادت أن تتأكد أنه يجلس من أجلها، فبدّلت عملها مع زميلها في القسم النسائي حتى تختفي عن نظر السيد. لكنه ظل يتحرك بين البابين ليراها حين ينتهي دوامها. خرجت من الباب بعد ٤ ساعات فتقدَّم نحوها وأخبرها بأنه يريدها أن تساعده في اختيار بعض الأشياء الأخرى. اعتذرت نور بقدَميها المُتعبتين من الوقوف طوال اليوم، فقال السيد يمكن أن يتأجل الشراء، وعرض عليها الجلوس لتناول مشروب، نظرت حولها فكرَّر السيد طلبه قائلًا إنه لن يؤخرها.

رفضت أن تجلس في المقهى الموجود في المركز التجاري، واقترحت مقهى بعيدًا قليلًا عنه، قبل أن يشرب السيد أول رشفة من الشاي الذي طلبه كان قد حكى لها كل شيء عن حياته، منذ اللحظة التي نبت فيها بيتهم من المستنقع إلى اللحظة التي يجلس فيها معها الآن.

سيل الحكايات أربك نور، لا تعرف هل تواسي هذا الشاب الذي ماتت أمّه قبل أن يعوِّضها، أم تبارك للشاب الذي سيذهب للعمرة ويملك ٤ ملايين جنيه ومحلًا مستقبليًّا واسعًا في مركز تجاري مهم. أمسكت كوب العصير أمامها تتساءل هل تسكبه على رأس هذا الشاب فلا يمكن أن يحكي لها كل هذا إلا لغرض ما. لكنه بكى وضحك، تأثَّر بكل كلمةٍ قالها، لم يقُل إنه ابن وزير ولا إنه يملك ثروة هائلة، الحالة الوسطى التي حكاها السيد جعلت نور تصدّق كل ما قاله، لكنها لم تنطق. أخرسها اندفاع السيد في الحديث كفيضانٍ من خلف سدٍّ مُنهار، لا توقّف ولا مراعاة لحقّ مَن أمامه في الجُمل الاعتراضية.

لاحظ السيد حَيرتها، فحذف كل ما قال سابقًا، ووضع لها طلبًا بسيطًا لتجيب عنه: تتزوجينني؟ ضحكت نور بصوت مرتفع، ارتدّت الضحكة بين البلاط اللامع والسقف الجبسي. وقالت: هيا نذهب لبيوتنا! كرر السيد طلبه، فاستمر ضحك نور، لم تستطع أن تأخذ السيد على محمل الجدية بعد مواقفه المريبة التي تراكمت طوال اليوم في عقلها. وقالت مازحة: إجازتي سبت وأحد، تعال يوم الإثنين بعد أن تخرج من تحت تأثير أيٍّ كان الذي تقع تحت تأثيره الآن، لو ما زالت مصرًّا فسأفكر.

ضحكت نور وهي تقول كلماتها، لكن جدّية السيد أربكتها، فأخبرها أنه

سيحضر يوم الإثنين منذ الفجر، تملّك الخوف من نور في تلك اللحظة، فسحبت شنطتها وهرولت نحو الباب، ثم توقفت قبل أن تخرج من المقهى ونظرت إليه نظرة قصيرة.. ترجم السيد تلك النظرة أنها تطلب منه أن يحضُرَ وأن يُلح عليها يوم الإثنين.

انفتح باب الغرفة فقطع أفكار السيد، حرك الهواء المندفع من قوة الفتحة الملاءة التي تستر جسد خميس. ارتد السيد للخلف حين ظنَّ أن خميس قد تحرَّك للتوِّ. أضاءت زر الإضاءة بعنف كعادتها، لكنها لم تكن منفردة هذه المرة، نظر السيد لساعته فوجد الساعات الثلاث قد انقضت. لا بد أن من برُفقتِها هو الطبيب. كان السيد ينتظر مَقدِمَ الدكتور مصطفى ليشكره على ما فعل، لكن بدلًا منه أحضرت سامية هذا الكائن.

رجل قامته بطول كولدير المياه المعدني الذي يوضع في الشوارع؛ رأسه أصلع، وله كَرِش ككرة قدمٍ أفقدتها أرجل الأطفال دائريتها السلسة وأكسبتها انبعاجات متفرقة غير متناسقة. لا يعرفه السيد، ولا يعرف لماذا كرهه حين رآه.

تقدَّمت سامية نحو خميس، قائلةً هذا هو يا دكتور أحمد. عرف السيد الآن لماذا كرِهه؛ لأن خلود تكرهه. حكت له أنهم أطلقوا عليه عبدالعزيز أحمد رضوان، وأحمد هو اسم هذا الدكتور نائب المدير. تقدم دكتور أحمد إلى جسد خميس، ونظر لسامية والسيد وهو يقول: هذا هو الشهيد. ضحك أحمد، وانتظر من الاثنين الضحك. أعطته سامية الضحكة التي يريدها، لكن السيد ظل صامتًا. نظر إليه الدكتور أحمد، فضحك السيد. لا يدري لماذا شعر بالتهديد من أحمد هذا، لكنه ضحك ضحكة خفيفة تصاعدت حتى اختنق السيد بالضحك.

تذكر السيد خلود وهي تحكي له عن مدى سماجة هذا الرجل. قالت له إنه لا يُطاق. ذات مرة أتت زوجته للمستشفى مع زميلتها في العمل، دخلت له المكتب، فكشف على الزميلة، ثم خرجوا ليجلسوا في المكتب. في حضرة بعض الطبيبات وزملائه، قال لزميلة زوجته إنه سيتزوج عليها لأنها لا تهتم به. ضحك الحاضرون، لكن زوجته قالت له دون تردد: تزوج، بل وقالت: أنا التي ستبحث لك عن عروس جديدة. ولا أريد منك نفقة ولا مصروفًا شهريًا ولا حتى أن تطلقني، فقط تزوج واسكن بعيدًا عني وعن العيال.

حين رآه السيد عرف السبب وراء صدق الزوجة في عرضها. الدكتور أحمد نظر للسيد منزعجًا من ضحكه، فسكت السيد. عاد الدكتور لمعاينة الجثة، قائلًا: أحسنتِ التصرف يا سامية، أبلغي أهله. قالت سامية: إن التذكرة المدوَّن عليها الرقم موجودة في مكتب المدير استعدادًا لمرور لجنة الوزارة غدًا. فقال لها الدكتور: لا مشكلة، سأُخبر دكتور عبدالعزيز أن يُرسل لكم الرقم فور أن يأتي صباح الغد. وأكمل أن: كلها ساعات ويطلع الصبح.

نظر الدكتور أحمد للسيد فجأةً، كأنما تذكّر شيئًا. اقترب منه قليلًا وقال: صحيح، أنت اسمك غالٍ يا عبدالعزيز. منافقٌ، كانت الكلمة الثانية التي وصفته بها خلود. منذ أتى للمستشفى وهو ينافق صاحب كل خدمةٍ، لا يهم أن يكون أعلى منه في السُّلم الوظيفي، لكنه يريد أن يحصل مجانًا على كل شيء. لهذا بطنه كنار جهنم لا تشبع ودائمًا تقول هل من مزيد. تعجَّب السيد من وصف خلود حين سمعه، تشبيه ممتاز وصادق. لو كانت قد درست الفلسفة لقالت مصطلحات كثيرة تصف الرجل، لكنها ما كانت لتنفذ إلى روحه كما نفذت إليها بشعورها الصادق.

طلب الدكتور ورقة ليكتب عليها إشارة لمديرية الصحة كي تُرسل سيارة إسعاف لتنقل المريض خميس إلى المستشفى المركزي؛ نظرًا لتدهور حالته واحتياجه لدخول العناية المركزة. قال لها، كأنما يشرح شيئًا لا تعرفه سامية: الإسعاف لن تأتي إلا بعد الثامنة صباحًا، حينها يكون قد مات واستلمه أهله أيضًا. ويصبح مسئولية الوفاة على تراخي هيئة الإسعاف، وتصبحون على خير.

تقدم نحو السيد قائلًا: سلام يا أغلى اسم في الوجود. ثم توجَّه ناحية الباب، تبعته سامية ووقفت على عتبة الباب. سمعهما السيد يتهامسان، تعتذر له أنها أيقظته في هذا الوقت المتأخر. ردّ عليها قائلًا: لا داعي للاعتذار، البيت الجديد بجوار المستشفى، والعروسة الجديدة لا تتركني أنام. غمز لها بعينه، تجاهلت سامية الغمز، وقالت له: لم أكن أستطيع إبلاغ دكتور مصطفى، كان سيصر على عمل محضرٍ. والمحضر سيكون فيه سين وجيم لنا جميعًا. وأولاده لن يصدقوا أنه مَن فعلها، سيدفنوننا معه. قال لها: لا تشغلي بالك بشيء، كل شيء سيمر بسلام، حتى لو عرف مصطفى، سواء الآن أو بعد ذلك، فأنا كفيل به.

انصرف فمدَّت يدها لتغلق الباب، لاحظت عين السيد المثبتة عليهما. فصاحت فيه: ألم أُحذّرك من قبل، نَم. رزعت الباب بعد أن صفعت زر الكهرباء وخرجت.

بعد يومين كانا يجلسان مقابل بعضهما في مطعم في وسط طنطا. تقول له إنها صُدمت حين رأته ينتظرها أمام باب الموظفين الخاص بالمحل. يرد السيد بجرأة أنها لم يبدُ عليها المفاجأة. تنظر في الأرض ثم تعود لتنظر في وجهه قائلةً بأنها توقَّعت أنه سيأتي فعلًا، لكن أنت هذه المرة لست الشخص الذي رأيته منذ يومين. كان السيد يرتدي الطقم الجديد الذي اختارته له نور، ويضع حول رقبته السماعة التي رشحتها، ويُمسك هاتفًا حديثًا ذهبي اللون.

الزيوت أعادت لشعره الأصفر بريقه الذي اغتالته سنوات الشقاء، ووجهه تبدو عليه علامات الراحة في غياب توتر التواجد في المركز التجاري كدخيلٍ على الطبقة العُليا. يرد السيد أنه لا يعرف هل نور مختلفة هذه المرة أم لا. يُخبرها أنه حين عاد لبيته حاول تذكر ملامحها فلم يستطع، ركزّ وتذكر تفاصيل اليوم بالكامل، وترتيب ألوان الملابس المصفوفة على أرف المحل، لكنه عجز عن تذكر ملامحها، حتى شكّ أن المحادثة التي دارت بينهما حدثت فعلًا.

ضحكت نور فتمدد النّمَش الموجود على وجهها. يبدو كنثار بنيّ اللون وضعته الطبيعة بعناية على وجهها. صاحبات النمش دائمًا جميلات. قالها لها السيد فردت مرتبكة أنها تكره هذا النمش كانت تتمنى لو أن هناك وسيلة للتخلص منه. يدقِّق السيد في وجهها يحاول تخيله بدون نمشٍ، كان سيبدو أجمل بالتأكيد. صفحة بيضاء تشع مع ضوء الشمس وينعكس عليها ضوء النيون في أي مكان؛ عينها الخضراء المُحاطة بحاجب سميك تبدو حادة قليلًا، لكن فيها جمال مستتر خلف تلك الحِدَّة المتعمَّدة منها. يقول لها السيد إنها جميلة في كل أحوالها، ورغم أنها قصيرة فإنها جميلة.

كادت نور أن تختنق بالمياه التي تشربها حين سمعت كلام السيد، وضعت الكوب وهي تضحك، وجهت سبّابتها إليه قائلةً: احذر كل من اقترب من الأرض. وعمومًا أنا لست قصيرة، فقط أنت طويل أكثر من اللازم. أكَّد السيد كلامها قائلًا كل جملة تحمل نقيضها فيها.

ابتسمت نور وقالت: فيلسوف لكن لا تستطيع اختيار سماعة أذن. رد السيد بأنه فقط ارتبك في المحلّ أمام الاختيارات الكثيرة، وأمام رغبته الدفينة بأن يجرِّب ما يجربه الأثرياء. ثم مال بجذعه على الطاولة ليخبرها أن رأيه يقارب رأيها في نقطة السماعة.

فهو يعتقد أن البشرية تصل في كل نقطة إلى ذروة التطور، ثم لا تجد شيئًا

تفعله فتحاول إعادة خلق الماضي بحجة أنه تطوُّر. قال لها انظري إلى الهاتف المحمول مثلًا، في البداية كان كتلةً واحدة، ثم لاحقًا اخترعوا الهواتف القابلة للطيِّ، تغلق الشاشة فيصبح حجم الهاتف النصف. بعد ذلك بدأوا في تصنيع الهواتف التي تعمل باللمس، كتلة واحدة لكنها من زجاج فقط، فكانت تطورًا. لكن لما لم تجد البشرية ما تفعله، عادت لخلق الهواتف المحمولة التي تعمل باللمس وتتكون من شاشة فقط، لكنها قابلة للطيِّ مرة أخرى. منحنًى لا بد أن ينهار فور وصوله لنقطة الذِّروة.

ضحكت نور وأسندت ظهرها إلى الكرسي وأبعدت كوب المياه من أمامها قليلًا وقالت: لندخل في الموضوع. ارتبك السيد لجديتها المفاجئة لكنه كرَّر طلبه للزواج. فقالت نور: يبدو أنك جاد في طلبك ولهذا جئت مرة ثانية، وربما أنت تريد التظاهر بالجدية. حاول السيد اعتراضها في الحديث، فأشارت له نور بالتوقف لتُكملَ كلامها.

قالت: أيًّا كان ما ستقوله، هذا هو عنوان بيتي وهذا رقم خالي سعد. نظر السيد في الورقة وبدا على وجهه علامات الارتياح، لكن قالت له: لا تتوقَّع الكثير، أنا لا أملك رفاهية قِصص الحب، لهذا سألخِّص لك مَن أنا، كما فعلتَ أنتَ من يومين حين سكبتَ لي حياتك بأكملها في دقائق. وبعد أن أمضي، أمامَك أسبوع بالكامل، لتتصلَ وتحدد موعدًا مع خالي. إذا لم تتصل خلال الأسبوع فالموضوع منتهٍ، وإذا اتصلت فهذا لا يعني موافقتي عليكَ، بل يعني موافقتك أنت، وعند تقدّمك لي رسميًّا أُقرر هل أوافق أم لا.

كانت نور عاقلة أكثر مما يبدو على وجْهِها الوديع. لم يدرِ ما يفعل سوى الجلوس والصمت. للحظة سأل نفسه ماذا فعل بنفسِه؟ الحياة لتوِّها بدأت تبتسم لك، وأنت تورط نفسك في زواج دون أن تعرف أي شيء عنها؟ لا قصة حب ولا زواج مصلحة، فقط إعجاب يا أبو السِّيد، منّك لله.

طرقعت نور أصابعها أمام عين السيد لتستعيده من شروده، فتنحنحَ وقال: معك. مدَّت يدها بالورقة ليأخذها منها، فأعادت الورقة لنفسه بعض الهدوء. يمكنه أن يستمع لها، وينصرف بهدوء، ولا يتصل بخالها، وانتهى الأمر.

أنا نور محمد أنور، عندي ٢٨ سنة، خريجة تربية نوعية بتقدير عام جيد، والدي متوفَّى منذ ٥ سنوات، وأنا أعول أسرتي؛ أمي وأختين في الإعدادية. بعد التخرج حاولت العمل في عدد من الحضانات أو المدارس الخاصة، لكن لم يوافق أحد على تعييني.

حاولت إنشاء حضانة للأطفال في قريتي، أنا من شبرا النملة على طريق

كفر الدمنهوري، لكن لم أملك السيولة لجعلها جذابة من حيث التجهيزات فلم يحضر إلا عدد قليل من أبناء الجيران. شهر تلوَ الآخر وجدت مصاريف الكهرباء أكبر مما أجمعه من الأطفال فأغلقت الحضانة. معاش والدي كان كافيًا في البداية، لكن ارتفاع الأسعار ودخول أختي المرحلة الثانوية رفع احتياجاتنا المادية.

عن طريق صديق كان يعمل في كافيه ساقية قحافة عمِلتُ هناك. ضحِكت نور وهي تقول: كان يعمل باريستا وليس في الكافيه. نظر السيد نحوها يستفهم عن الاستطراد، قالت بأنه لا يحب أحد أن يناديه إلا بالباريستا كمال. رغم أن الكلمة هي المعادل العربي للقهوجي، إلا أنه يرى الباريستا مهنة تحتاج لدراسة وفنٍّ، وليست مجرد تقديم لطلبات الزبائن.

ابتسم السيد يجاري نور، وهو لا يكترث بهذا الباريستا، يريد معرفة الشيء الذي تظن نور أنه سيجعله يتردد في الزواج منها، وتحاول سرد كل التفاصيل المملة من أجل التمهيد له. لاحظت نور تململ السيد، فاعتذرت ومسحت الضحكة من وجهها، وأعادت عينها لتركيزها قائلةً: عملت في الساقية لسنة ونصف. قابلت العديد من الناس هناك، مثقفون وموسيقيون وشعراء وكتّاب، ومدَّعُو الشعر والكتابة؛ المتحرشون والمحترمون، قابلت كل الناس هناك. لكن خرجت من المكان نفس نور التي دخلته. بعد هدم الساقية ذهبت إلى...

قاطعها السيد قائلًا: فعلًا رأيت الساقية هُدمت لكن لم أعرف السبب، في البداية تحوَّلت لنادٍ رياضي، ثم لقاعة أفراح، وفي يوم لم أجِدْها.

قالت نور: بعد أن امتلأت طنطا بالمقاهي والمطاعم خفَّت القدم من الساقية، فقرَّر القائمون عليها تحويلها لنادٍ رياضي لكمال الأجسام، لكن لم يتردد عليها أحدٌ. في النهاية جعلوها قاعة أفراح، لكنها كانت أصغر من اللازم، فهدموها وجعلوها توسعة للطريق.

تحسر السيد على هدمها، فابتسمت نور قائلةً: أعرف أنها تعني لك الكثير، كنت أراك هناك يوميًّا. ضحك السيد وقال: فلنعد للمهم، بعد الساقية أين ذهبتِ؟ قالت: ذهبت لساقية أخرى، البلد مليئة بالسواقي. فهم السيد تلميحها فضحك، وقال: الساقية الجديدة كانت محل الملابس في المركز التجاري؟

قالت نور: لا، كانت في مكان لبيع الأجهزة الكهربائية والأدوات المنزلية. عمِلت فيه بعد شهرين من الجلوس في البيت أبحث عن عمل. كمال الباريستا هو من أتاني به، فقد وجد عملًا في مقهى عصري، يفهمون فيه قيمة الباريستا، أمام المحكمة. ووجد صاحب المحل يضع إعلانًا يطلب فتاة

للمبيعات فطلب منه أن يزيل ورقة الإعلان وسيأتيه بها غدًا.

قاطعها السيد: لكن هل أنت مؤهلة للعمل في محل أدوات كهربائية؟ ابتسمت نور: كان هذا أول سؤال سألته لصاحب المحل. قلت له طوال عمري أسمع أن الشباب هم من يعملون في تلك المحال؛ لأنها تحتاج لنقل أشياء ووضع أشياء. أخبرني صاحب المحل أنه لا يريد مني نقل أو وضع أي شيء، لا يريد إلا فتاة ذات بال طويل تتحمَّل تردد العرائس، وتأخذ منهم ردًا نهائيًا باسم ولون القطعة التي يريدونها وتبلِّغ بها أحد الشباب ليجلبها لهم.

ضحك قائلًا: كفَّروا الرجل! أكَّدت نور على كلامه قالت: كرِهت النساء بعد ٥ شهور من العمل في المحل، كمية تردد مهولة، والعروس المحترمة التي تأخذ أدواتها سريعًا وتذهب، تعود بعد يومين لتغيّر أي شيء. كرِهت العمل لكن لم أستطع أن أتركه، احتياجاتنا المالية والعمولة كانت جيدة، والزبائن كانوا يعطوننا مالًا أحيانًا. لكن في النهاية لم أستطع التحمل خصوصًا أني حين ذكرت انزعاجي أمام خالي مرة، وفَّر لي عملًا بعدها بأسبوعين في محل الملابس الذي قابلتني فيه.

سألها: وما علاقة خالك بمحل الملابس؟ أجابت بحسرة: يعمل فرد أمن على بابه. تعجَّب السيد من حسرتها وهي تتكلم، فلم تبدُ عليها وهي تحكي تنقلها بين وظائف لا تختلف عن وظيفة خالها. سألها بشكل مباشر: يعمل في نفس الوظيفة منذ زمن؟ فهمت نور المغزى، وقالت: لا.

كان يعمل حارسًا شخصيًّا لرجال الأعمال، لكن بعد حادثة دهس رجل أعمال ممن كان يحرسهم دار الحديث عن تواطؤ أفراد الأمن في تسهيل وصول الناس له، فقررت شركة الحراسات التي كان تابعًا لها أن تتخلَّص من كل الرجال الذين تواجدوا في محيط الحادث. لكنها لم تفصلهم؛ لأن حادث الدهس أصلًا كان بسبب فصل عمال، فاختارت دفعهم إلى الاستقالة ونقلتهم بشكل عشوائي وعلى فترات قريبة لأماكن بعيدة في أنحاء الجمهورية، كان خالي ينهي مناوبة ٢٤ ساعة في القاهرة ويعطونه راحة ١٢ ساعة فقط، تضيع في القطارات. ثم ينقلونه للأقصر شهرين، ولمطروح ٤ أشهر، وهكذا.

حتى قرر هو وأصدقاؤه الاستقالة أو تسوية معاش مبكِّر، فصِحَّته لم تعد تحتمل كل هذا الإرهاق. أحد الذين استقالوا معه كان ابنه يعمل مشرفًا في منطقة المطاعم في المركز، فأحضر لأبيه الوظيفة، ثم أحضر أبوه خالي، وأحضرني خالي، ثم حضَرتَ أنت، وهكذا حضرنا جميعًا في محل الملابس!

ضحك السيد، لكنه ظل يترقَّب كلامها كي تُكمل، لم تكمل نور الحديث،

ظلت صامتة تنظر إليه. السيد يهز رأسه يحثها على الإكمال، فقالت نور وعينها في عينه: انتهى الكلام. قال السيد بصوت مرتفع: حقًّا؟ قالت نور: نعم، ماذا كنت تنتظر؟ أجاب السيد أنه ينتظر أنها بلا رَحِم مثلًا أو في علاقة مع أحد. تأففت نور من كلامه، واستعاذت بالله. قالت: لا شأن لك إن كنت في علاقة مع أحد أم لا.

ثم اعتدلت في كُرسيها مكملةً حديثها بأن كلامها لا يعني أنها كانت في علاقة، أو لم تكن، فهي لا تحاول نفي شيء أو إثباته، شعَر السيد بالارتباك لكلماته التي يبدو أنها أهانت نور، فاعتذر عنها ودعاها لنسيانها والعودة لما كانت تقول.

رفعت نور كوب العصير إلى فمها، لكن قبل أن تشرب منه قالت للسيد إن ما أرادت إيصاله له من كل هذه التراجيديا أنها المسئولة عن أسرتها، وزوجها يجب أن يكون مسئولًا عنهم كذلك. ورفعت إصبعيها قائلةً: أمام اختيار من اثنين؛ إما أن تدعني أستمر في عملي وأساعدهم من مرتبي، أو إذا كنت سأترك العمل لظروف حملٍ مثلًا فسآخذ مرتبي منك وأعطيه لهم.

ضحك السيد لجرأة نور، لم ينشغل بقصص الحب في الجامعة؛ لأنه كان يخاف التورُّط في علاقة لا يستطيع إتمامها، لكن مع نور يستطيع إتمام كل شيء بالمال الذي يملكه، لكنها حتى الآن لا تبدو العلاقة السلسة التي يرسم فيها الطرفان أحلامًا وردية عن المستقبل والأبناء.

يشعر معها بأنها نسخة أشد حدةّ من المحامي الذي وقَّع معه عقد الأرض. لكن رغم هذا الضباب تمسَّك بنور. سؤال لم يعرف له إجابة أبدًا، لماذا قرر خوض هذا الضباب الذي لا معالم واضحة فيه، رغم أن الفرصة أتته مرتين لينسحب، ورغم أنه على وشْكِ أن يبدأ حياة جديدة فلينتظر حتى يصعد للطبقة الأعلى ومنها يختار عروسًا جديدة.

غرق السيد في أفكاره فأعادته نور للواقع بقولها: انتهت القصة، سأقوم والكرة في ملعبكَ.

بعد انصرافهم قام السيد وأعاد تغطية خميس بالملاءة الملونة، تمدَّد على سريره ينظر للسقف. الذباب بدأ في الرحيل من الشباك مع طلوع النهار، لم يشعر إلا وهو يستيقظ من نومه على صوت خارج باب الغرفة. قام ليفتح الباب فرأى مجموعة من العاملات يتحدثن. قال: "مشاجرة كل يوم" وعاد لسريره.

في صباح كل يوم يتشاجر عمال الوردية المسائية مع عمال الوردية الصباحية الذين يتسلَّمون منهم العمل. يقول جميعهم لجميعهم إن الآخر لم يُحسن تنظيف الحمامات أو الأدوار تكاسلًا لأن الآخر سيأتي ويُنظف. عمال الصباح يقولون عمال الليل لا يفعلون إلا النوم، وعمال الليل يقولون لعمال الصباح إنهم ينشغلون بتلقِّي الإكراميات على نقل الطعام والملابس بين المرضى وذويهم ولا يهتمون بالتنظيف. يراها السيد مشاجرة كالجري في المكان؛ لأن عمال الليل والصباح يتبادلون الورديَّات كل أسبوع، ومع ذلك تستمر المشاجرة.

يغلق الباب، ويعود لفراشه، يفرد الغطاء على رجله ليستدعي النوم الذي يناوره. إحدى العاملات دخلت لتأخذ أسطوانة الأكسجين الموجودة بجوار خميس. لم تنطق العاملة على عكس طبيعتها. شعور مزعج في بطن السيد يزداد. رجل عاش عمره في السوق يعرف أنه لا يجب أن يتجاهل بطنه حين تحدِّثه بأشياء غير طلب الطعام. دقائق أخرى ودخلت خلود تسحب أسطوانة كانت موضوعةً بجوار السيد تحسُّبًا لتدهور حالته في أي وقت.

ضوء الفجر انعكس على عيني خلود، فرأى السيد عينين مفتوحتين والدموع تنهمر صامتة. ظن أنه الرعب الناجم عن حضرة الموت، لكنهم اعتادوا الأمر، ردَّ على نفسه، ثم رفع صوته: "إحساسي لا يكذب، هناك شيء خاطئ".

دخلت سامية بعد خلود بعشرِ دقائق، ألقت نظرة إلى جوار الأسِرَّةِ وفي جوانب الغرفة، ثم أغلقت الباب بهدوء وخرجت. انتفض السيد، سامية لا تُغلق الباب بهدوء، خميس انتحر ولم تغلقه بهدوء.. "هناك كارثة".

فُتِحَ الباب، فتراجع للغرفة، ثم أُغْلِق الباب بقوة.

أخذ نفَسًا عميقًا سحب كل الهواء الذي وفَّره خميس، ثم فتح الباب مرة أخرى.

الطرقة التي تَصُب فيها أبواب جميع العنبر، ممتلئة بالأسِرَّة. اختناق مروري

كاختناق الثانية ظهرًا بعد خروجه من المحكمة، لكن بلا سيارات، بل بالبشر فوق أسِرَّة صَدِئة. تصطدم الأسِرّة ببعضها فتُصدر صراخًا، تتحرك فتصدر عواءً، يمتزج الاصطدام بالحركة فيخلقان صوتًا مرعبًا.

جميع المرضى خرجوا في وقت واحد، والتمريض واقف بين الأسِرَّة لا يعرف ما يفعلن. يصرخن في المِصعد كي يصعد لهم، لكن المعدِن لا يستجيب لنداءاتهن. ينادين رجال الأمن، والعمال الذكور، فتتكاثر الوجوه في الطرقة ليزداد الزحام ولا تُحل المُعضلة.

شهَقات المرضى ارتفعت، يتصارعون وهم على أسِرَّتهم على ذرات الأكسجين المتاحة في جو المستشفى. هرولت إحداهن للشباك المُطل على الطريق السريع وصرخت: أغيثونا، الأكسجين انتهى. لحظة صراخها انهار الواقفون، كأنما رفعت عنهم عبء التصرف، فاستسلموا لما يطالبهم به المشهد المرعب، الانهيار.

خلود في زاوية العنبر متكوِّرة كالجنين. عينها مدفونة في ركبتها المضمومة، وصوت بكائها المختلط بالصراخ كالأطفال يصِلُ إلى السيد. العاملات يتحركن كالذباب المرشوش بمبيدٍ حشري، يصطدمن بأكتاف بعضهن ولا يفعلن شيئًا. يدُرْن في المكان هربًا من شيء لا يعلمنه، أو خوفًا من أن يراهن المشرف جالسات فيخصم من رواتبهن.

بدأ السيد يستوعب المشهد. كقطع اللغز الورقي المكون من ألف قطعة، يضع قطعة بجوار أخرى حتى يكتمل المشهد. هذا تصور السيد دائمًا عن حياته، لغز مكوّن من قطع عديدة، كلها تحكي شيئًا عنه، لكن كلها بغير بعضها لا تحكي كل شيء. كل قطعة تحمل جانبًا من الاكتمال، لكنها تشير في نفس اللحظة إلى أنَّ هناك نقصًا ما. فلا يهم قطعة اللغز التي سوف تضعها أولًا، ربما كانت من نهاية اللغز، وربما كانت من قلبه، المهم أنّك في النهاية سوف تعود بظهرك للخلف، وتفرك عينيك، فقد اكتمل اللغز أمامك فجأة. أغرتك التفاصيل فاستسلمت لتتابعها، وستُصدم في لحظة أن اللغز قد اكتملت كل أوراقه. القطعة التي ستُكمل لغز السيد الأكبر، ولغز كل حيّ، هي الموت.

أما القطعة التي أكملت له المشهد الذي يراه الآن هو أسطوانات الأكسجين المتراكمة تحت لافتة "فارغ" ولا أسطوانة واحدة تحت لافتة ممتلئ.

أراد أن يتقدم نحو خلود ليحتضنها، لكن الأسِرَّة المتعامدة على بعضها منعته. أغلق الباب والتفت إلى خميس الواقف خلفه، هل ترى يا خميس؟

وضع السيد يده يربت بها على يد خميس حين شعر بيده على كتفه. ابتسم السيد لكلمة خميس "أخبرتك أنها زريبة، ونحن المواشي".

أجابه السيد: "العلف لا ينفد من الزرائب يا خميس". أجابه خميس: أخبرتك منذ يومين سنموت، طالما أحضرونا من بيوتنا إلى هنا، فسنموت. الحمد لله أني اخترته ونفذته بنفسي. استدار السيد ليفتح الباب ويرى ما آل إليه الحال. لم يتغير شيء إلا أن العاملات تكوَّرن بجانب خلود يبكين. التفت السيد إلى الخلف، فرأى خميس ممددًا على فراشه ومغطًّى بالملاءة الملونة.

"بسرعة رجعت يا وغد، صيد القراميط علَّمك تبقى قرموط".

عاملة وقفت بجوار الممرضة التي صرخت من الشباك تصرخ معها. ٢٣ سيدة محجوزة في المستشفى، لكن لم يساعدهن نقص الأكسجين في الولولة بنفس قوتهن السابقة، لكنهن صرخن بصوت خفيض تراكمت طبقاته من سرير لسرير، ومن غرفة لغرفة، ومن دور لدور. كوّن خلفية جنائزية للصرخات الموءودة التي تصدر من الرجال الثلاثة عشر المحجوزين في غرف الرجال، بعد حذف خميس الميت والسيد المصدوم.

سيارات النقل الثقيل التي تنشط على الطريق السريع مع بزوغ الفجر اغتالت جزءًا من أصوات الصراخ. لكنها لم تستطع أن تكبت الصوت بعد انضمام عاملتين أُخريين للكورال الصارخ. الشباب النائم أسفل السور الخارجي للمستشفى لم يعد للنوم بعد فزعه قبل عدة ساعات بسبب صوت ارتطام قوي. أخبروهم أنها قطة أسقطت أسطوانة أكسجين، فصدّقوهم وعادوا للسمر.

الآن تكرَّر الأمر، لكن العواء البشري كان مرعبًا. ١٠ شباب؛ أبناء وأحفاد وإخوة للرجال والنساء المحجوزين بالأعلى. تُحيرهم أصوات الأقدام المتحركة على السلالم، المعادن التي تصطك ببعضها. تقدَّم اثنان للطَّرْق على البوابة الحديدية لاستكشاف ما يحدث. بعضهم ظل جالسًا يُطمئن الآخرين بأنها أسطوانات الأكسجين، لا بد أنهم يجهِّزونها للتبديل مع اقتراب الفجر، واقتراب موعد قدوم سيارة الأسطوانات.

التفت أحدهم إلى الآخر قائلاً: عربية الأنابيب لم تأتِ اليوم. كيف لم تأتِ؟ سألهم صوت ثالث، أنا والدي فوق منذ أسبوع والسيارة تأتي مرتين يوميًّا. أكَّد رابع أنه يجلس منذ الصباح والسيارة لم تأتِ. هبَّ الشباب يضربون البوابة الرئيسية: افتحوا، افتحوا.

الخفير النظامي المسئول عن حراسة البوابة يعرف هذا النوع من

الطرقات؛ الطّرقات التي يتبعها صفعات من مرافقين غاضبين جاءوا بمريض ميت يريدون من المستشفى أن تنفخ فيه الروح. قام من سريره، لم يتقدم نحو البوابة لكن أغلق باب غرفته ووضع كرسيًّا وراء الباب، وحرك الدولاب ليسد به الشباك المُغلق بالشيش والزجاج. يقول في خاطره: سيسمع التمريض الطرق ويقومون ليفتحوا البوابة فيتلقوا هم فَوْرة غضب القادمين.

تأخرت الاستجابة وارتفعت الصرخات وبات الصوت واضحًا، الأكسجين نفد. تسلَّق شاب البوابة، وفتح للآخرين. رأوا سعيد العامل جالسًا على السُّلم يبكي ويلطم، ماتوا. كلماته كانت كافية ليهرع الشباب العشرة نحو الأعلى، كلٌّ يتجه إلى الطابق الخاص بمن لهُ. أصوات الأنين امتزجت بأصوات الشباب الغاضب. يقطع فلاش الكاميرات كلاحة أضواء النيون المتهالكة التي تضع المستشفى في حالٍ كئيبة لا هي مظلمة ولا مضاءة.

في الطابق الثاني استقرت كاميرا أحد المرافقين على فتاة متكوِّرة في الزاوية. ترتدي الزي الأبيض للممرضات، كان جسدها نحيلًا، تبدو كمومياء لخادمة ربطوها لتُدفن حيةً مع سيدها. تحركت كاميرا الشاب على رجل شعره حائر بين صُفرة الأصل وبياض الشيب، يضحك ويتحدث مع شيء، شخص ربما، ممدّد على السرير المقابل له ومغطًّى بملاءة ملونة.

أصوات الصراخ والشتائم أيقظت المحيطين بالمستشفى. توافدوا، وبدأت صيحات "الأكسجين.. الأكسجين" في التزايد كلما زادت زرقة وجوه الحالات التي تكافح للهواء. عمال اللحام أحضروا الأسطوانات الموجودة في ورشهم. وتواصلوا مع مزوديهم بالأسطوانات بالإسراع لإنقاذ المستشفى. الجمعيات الأهلية توافدت بمولِّدات الأكسجين المتوفرة لديها. تراكمت الأسطوانات أمام البوابة الرئيسية للمستشفى، وصل الطابور إلى بوابة الاستقبال، ثم إلى باب المصعد.

رصَّ اثنان من الشباب ١٠ أسطوانات في المصعد، ثم ضغطوا على الزر ليصعد، لم يصعد. أفرغوا أسطوانة تلو الأخرى ولم يتحرك المصعد بأي عدد من الأسطوانات. صوت يأتيهم من الخلف المصعد عطلان، على أرجلكم يا شباب. نطقها بهدوء كأنما ينصحهم بحمل قلم رصاص. التفت إليه أحدهم، ومسح العرق من جبينه، قائلًا: أخيرًا صحوتَ يا خفير الغفلة!

أحد الشباب الواقفين أمام بوابة الاستقبال استدار ينادي الواقفين بالخارج، كعّابي يا شباب.

يفترشون الأرض لتناول الطعام. أول مرة منذ زواجه لا يتناولون الطعام على السفرة، يجلس السيد غير مرتاح، يفك قدميه ويُعيد ضمهما للوصول إلى وضع مريح، لكن لا يصل. ابتسم ساخرًا من نفسه فيبدو أنه اعتاد الأكل على كراسي السفرة، ونَسِيت مفاصله وعضلات جسده كيف تتأقلم مع وضْعِ الأكل على الأرض.

تتناول الأسرة الغداء الأخير قبل أن يصِل العمَّال لنقل الأثاث للشقة الجديدة؛ نور المتحمسة لم تُرد التأخير في تغليف السفرة فأعدَّتها للنقل منذ ليل البارحة. تتناول نور طعامها مسرعة كـأنما تستعجل الوقت، ويفعل توأمها البكر السيد الابن وصَفيَّة مثلها. أما أحمد، آخر أبناء السيد، فيستند على فَخِذ أبيه وعينه معلَّقة بالتلفزيون. يحاول السيد ابتلاع اللقمة فلا يستطيع. يرجع خطوتين للخلف فيستند على كرتونة مكتوب عليها زجاج، تنهره صفية، فتخبرها أمها أنْ لا بأسَ لو انكسر. تُكمل نور أنهم سيشترون أشياء جديدة تليقُ بالبيت الجديد.

فتح السيد الكرتونة لينظر ما فيها، فوجد فازة من الكريستال أُعجبت بها نور حين رأتها في واجهة محل حلويات عبدالفتاح مرزوق، فاشتراها لها على الفور. لم تعُد نور تقدِّر الهدايا ولا الذكريات، هذا ما أصبحت عليه بعد عامين من زواجهما. ظن السيد أن اللف على محالِّ طنطا الشهيرة لاختيار تابلوه واحد، أو اختيار نجفة بسعر مبالغ فيه لأنها كانت تتمنَّى شراءها منذ كانت تعمل في ساقية قحافة، سيجعل لكلِّ شبر في بيتهما ذِكرى.

لم يدرك السيد أن حِرصها على اختيار أفضل شيء، وأغلى شيء، وكلِّ شيء، لم يكن سوى انغماسًا في تفاصيل الزواج، كي تنسَى الزَّوج. أخبرته أنها رسمت شقتها المثالية منذ أن كانت في الصف السادس الابتدائي، ووضعت تصورُّها لحفل زفافها في الأول الإعدادي، وعاشت سنواتها قبل ارتباطها بالسيد تُرتب وتُعالج ثغرات الخيال. لكنها تناست أن الثغرة من الممكن أن تكون شيئًا غير متوقَّع، مثل العريس، فهو السيد وليس كمال.

يبرِّر السيد تصرفات نور بعد الزواج أن نور التي معه ليس نور، لكنها نور التي لا تحبُّه. ثم يرد على نفسه أنها ربما تتصرف بتلك الطريقة؛ لأن هذه هي نور، وهكذا ستكون لو كانت مع أي شخص آخر. يُعزي نفسه بالاحتمال الثاني لكنه يميل للاحتمال الأول أكثر.

مشهد الكراتين المغلقة وأجواء النقل أعادت السيد لذِكرى كرتونة ملابس

نور التي وجَد فيها أجندة مذكِّراتها، لم يواجهها بخصوصها حتى اليوم، ولا يظن أنه سيفعل، يفضِّل استمرار البيت حتى لو لم يكن هو جزءًا فيه أهون من هَدمه في محاولةٍ منه لإقحام نفسه في مركزه.

كثيرًا ما همّ السيد بأن يقذِف الكلمة في وجْه نور، لو كان كمال بدلًا مني لما فعلتِ كذا. آخر مرة أراد أن يقولها لها قبل شهر حين أصرَّت على الانتقال لمنزل جديد، يناسب الانتقال الطبقي الذي فاز به السيد حين سافر إلى اليابان ووقَّع اتفاقية ضخمة مع الشركة الأم للعديد من توكيلات الأجهزة الكهربائية.

لم تهتم نور بمعرفة كُنه تلك الاتفاقية، بعد أن كانت تُقحم نفسها في كلِّ التفاصيل بحجة أنها صاحبة اقتراح الأجهزة الكهربائية من الأساس. لكن ما أهمَّها حين نقلت الصُّحف لقاء السيد بالشركة اليابانية أن زوجَها لم يعد مُجرد تاجر ناجح للأجهزة الكهربائية، بل صار واحدًا من أكبر رجال الأعمال.

أصرت نور أن تكون الشقة في شارع عمر بن عبدالعزيز. منطقة الاستاد أحدَث، والشقق بها أرحَب وأغلَى ثمنًا، لكنها أصرَّت أن تكون الشقة الجديدة في شارع عمر. تراه نور القلب الذي تتفرع منه شوارع طنطا كلها. وتؤمنُ بأن السكن في قلب طنطا يُوحي بأنها من أهل البلد، أما الاستاد والمناطق الجديدة تعني أنها مُحدثة الانتقال لطنطا.

لكن بداخلها أرادت نور الهروب من كل ما هو ريفيّ؛ الزرع والناموس ومصارف المياه. تريد أن تنغرس في قلب الكُتل الخرسانية التي تحجب السماء عن طنطا كي تثبت أنها ابنة المدينة منذ الأزل.

صوت طرقعة زجاج الفازة أعاد السيد من شُروده، ابتعد عنها وفرَد ظهره على أرضية الشقة. جاء ابنه أحمد، ووضع نفسه على ذراعه. أخبره أحمد أنه لا يُريد الانتقال من المنزلِ، ولا يريد ترك المدرسة وأصحابه.

أحمد يُشابه السيد في تلك الصِّفة؛ التعلق بالأشياء القديمة، لا يشتريان ملابس جديدة إلا بعد أن تتمزق ملابسهما الحالية، وحين يشتريان فإنهما يشتريان نسخة جديدة من الملابس القديمة. كل أحذيتهما نسخة واحدة لحذاء متكرِّر، لم يعودا يذكران متى اشتريا النسخة الأولى منه.

على النقيض منهما السيد الابن وصفية، لا عزيز لهما فيما يتعلق بالأشياء، أو البشر؛ يحبان التجديد لأجل التجديد، ولا يذكر السيد أنهما حَزِنا لكسر لُعبة أو ضياع شيء يخصهما. كل شيء عند التوأمين وأمهما قابل للاستبدال فورًا. يمازحهما قائلًا: أظن لو أني مخلوق من تروسٍ وتعطَّل تُرس واحد لما

أصْلحتموني، بل ستشترون واحدًا جديدًا على الفور.

وضع أحمد يده على صدر أبيه، واستدار على جانبه، وقبّل كتِف السيد. احتَضنه السيد، وربت على شعره، وقبَّل رأسه. لا يعرف السيد من أين اكتسب الصغير عادة تقبيل كتفه، لكن السيد كان يحبها، يشعر في قُبلة الصغير بشيء من قبلة أمه التي لا يذكرها، وبقايا قبلةٍ من أبيه رغم أنه لا يذكر أن أباه قبّله أبدًا.

يضم السيد أحمد بقوةٍ. ينظر في عينه دون أن يتكلم، يود لو استجمع قواه وشكَره أنه أذاب الحاجز بينهما. وأن الصغير هو الذي كسر لعنة العلاقة الجافَّة بين السيد وأبيه عزَّت، ثم بين السيد وتوأمَيْه.

استدار السيد على جنبه ليواجه عين أحمد، حكى له عن النجفة المعلَّقة. نور اشترتها من أغلى جاليري في طنطا. وأنها لا تعجبه، لكن لم يرد أن يجرح نور، فدفع مقابلها ووضعها في تاكسي للمنزل. حين رأتني أمك أنزل من التاكسي هرولت وشتمتني أمام السائق لأني كان يمكن أن أكسرها، وأن تلك النجفة نسخة واحدة فقط في طنطا كلها، وربما في مصر كلها.

تنهَّد السيد وأكمل: لأني كنتُ في قرية والدتك، ولا يعرفني الكثيرون لم أهتم، لن يروني بعد ذلك. لكن الآن يا أحمد، انظُر، النجفة معلَّقة وأمك لم تمسح عنها براز الذباب منذ أول يوم لزواجنا، ولم تهتم بأخذِها للبيت الجديد.

ضيّق أحمد عينه محاولًا إظهار كأنه يركِّز، ضحِك السيد لخُدعة الصبي التي يفعلها كلَّما سمع شيئًا لا يفهمه، لكنه لا يريد أن يسأل عنه. غيّر السيد الحديث وقال لأحمد إنه يحفظ عدد أمتار سيراميك الشقة، ويعرف أي سيراميكة بها وحمة. لا يزال يحتفظ بقُصاصات الستائر كي يُصلحها إذا اهترأت مع الزمن. وأن كشَّاف الإضاءة الدائري يضيء ٣ ألوان، وكان هو أول من أدخَلَه للقرية.

بينما ينظر للسقف تسمَّرت عينه في النجفة، ففي قطع المَعدِن، الذي لا يزال يحتفظ ببقايا لمعانٍ، رأى السيد انعكاسًا صغيرًا متكورًا له ولابنه. تكوّر المعدن جعل وجه السيد مكثفًا ومختصرًا، فظهر شعوره جليًّا، كان السيد حزينًا منقبضًا.

رأى أباه في ملامحه، واكتشف أنه يُشبه أباه في ذلك الموقف أكثر من أي وقتٍ آخر. نفس النظرة التي تتطلع إلى لا شيء، كانت على والده منذ عدةِ سنوات وهما يشاهدان الجرّافة تهدم الطوب اللبن استعدادًا لبناء البيت الجديد بالطوب الأحمر والحجر الفرعوني.

لم يشترك أبو السِّيد كثيرًا في اتفاقات الهدم أو البناء. حاول السيد إشراكه

بالقوة لكنه تملّص دائمًا. يستيقظ من الفجر، يصلي ويعود فيفرش بردعة الحِمار ويجلس عليها مستندًا إلى جدار الجار المواجِه للمنزل. عينه مثبَّتة على البيت، لا تتحرك إلا حين يُخرجون شِباكًا أو يخلعون بابًا. تُشيِّع عينه قطعةَ الأثاث المبتورة حتى يستقرَ بها العمال على جدار الجار المجاور، ثم يعودون لينزعوا أخرى فتعود عينه معهم للبيت.

ينتفض بصورة لا إرادية مع كل طوبةٍ تسقط. ضحك السيد من انتفاضة أبيه في المرات الأولى، لكنه آثر تجاهلها بعد ذلك. منذ الفجر حتى غياب ضوء النهار، يجلس عزَّت ليراقب بطن البيت المبقورة تُخرِج أحشاءها؛ مرتبته وسريره، أنتريه قديم اشتراه من محل الشيخ محمد للموبيليا القديمة، حصيرتان ورديتا اللون اشتراهما ليمنحا البيت فرحةَ العيد بعد وفاة الأخ الأكبر. فأس لم تعُدْ تُستخدم منذ باع السيد القراريط، وماكينة ريٍّ كساها التراب. يشاهد عزت كل ذلك ولا يتحرك ليُفسح لجرار يحمل الأثاث أو لجرّافة هدم.

استأذن السيد أباه أن يبيع ماكينة الري، والحمار والعربة، فلم يعد لهم حاجة بأدوات الفلاحة. لم يوافق عزت، ولم يرفض. اشتكى السيد حال أبيه لرفاق أبيه في المسجد، تحلّقوا حوله ونصحوه ألَّا يكسر بخاطر الولد، وأنها سُنة الحياة. قال لهم عزت: إنّا لله وإنا إليه راجعون. ثم نظر إلى شيخ المسجد قائلًا: قل للسيد الله يصلح حالنا وحالك، افعل ما شئت.

كلمة الاسترجاع المُقترنة بالموت قبضت قلب السيد، لكنه اطمأن أن أباه لا يزال قادرًا على الحديث. أخبره الكبار أنها فترة وستمُر، وهو ما كان السيد يعلمه بطبيعة الحال.

جاءت عربات الطوب الأحمر قبل الهدم بيومين. السيد يريد أن يبني البيت بأدواره الثلاث دفعة واحدة؛ لذا فعلى عربات الطوب أن تبدأ بالتوافد كي توفِّر له الكَمية الكبيرة التي طلبها. رصُّوا الطوب عن يمين عزت وعن يساره وتركوا الفجوة التي يجلس فيها. الغبار المزعج المتطاير من الطوب لم يُحركه، حاول السيد زحزحته لكنه لم يستطع.

استمر عزت طوال أيام تجهيز البيت للهدم على حالته تلك. يضع السيد أكواب الشاي أمامه كلما صنع كوبًا للعمال، فيشرب كوبًا ولا يشرب عشرة. يغيب الضوء فيقوم ليتوضأ من طلمبة مياه على بُعد أمتار منه. لم يدخل للطلمبة الموجودة في وسط داره رغم أنها لم تُنزع إلا في اليوم الأخير قبل الهدم مباشرة.

يتوضأ ويعود للبردعة، يجمع صلوات اليوم كلها جالسًا لم يعد يقدر على

الوقوف منذ بدأت عملية الهدم. يرفع البردعة على عربة الحمار الخضراء الموجودة أمام البيت، ثم يمدد جسمه وينام. يستيقظ عند أذان الفجر، فيصلي بوضوء أمس ثم يعتدل في جلسته يراقب البيت.

لم يعرف السيد ما كان يدور في عقل أبيه حينها. مازحه أنه لا يجوز الصلاة بوضوء قد نمت به، فلا تدري ما حدث ليلًا. يخبره عزت أنه لا ينام، العقل يبقى مستيقظًا. جادله السيد كي يدخل لينام في غرفة البيت الأخيرة، فقد أجَّل السيد إخلاءها ليوم الهدم صباحًا كي تؤويهم. يُصر عزت ألَّا يدخل، فيدخل السيد وحده.

عزاء السيد ظنّه أنه يكافئ أباه، يمنحه هدية لا يقدر أبوه أن يستوعبها حاليًّا. ولم تكن تلك أول هدية يرفض الوالدان قبولها من ابنهما. مشكلة السيد معهما كانت أنهما لا يفرحان حين يُهدي إليهما شيئًا. ذات مرة قرَّر أن يشتري لهما مرتبة جديدة، عادا من الحقل فوجدا مرتبة قطنيّة مرتفعة وناعمة، بدلًا من مرتبتهما التي باتت في رقَّة ورقة الكراس.

تخيل السيد فرحتهما بكل شكل ممكن، لكن لم يتخيل أن يغضبا لأنه يُهدر أمواله على شيء هما لا يحتاجانه، وتخلَّص من شيء لا يشتكيان منه. لكنهما في النهاية كانا يقبلان بالأمر الواقع، وبعد فترة تطول أو تقصر تخبر صفية ابنها أن أباه فرح للغاية بما أهداهما.

والآن يُهدي السيد أباه منزلًا جديدًا بالطوب الأحمر بدلًا من طوب الطين؛ صرف صحي بدلًا من الطرنش، مياه تخرج من فلتر مُتعدد المراحل بدلًا من الطلمبة الموجودة في مُقدمة الدار. سطح من الأسمنت، بدلًا من سطح القش والذرة الذي يسمح للمطر بإغراقهما كل شتاء.

لكن بعد أن أجبرت نور السيد على الرقي والحضارة، بعد أن أصرت على اختيار منزل بعيد عن الريف الحِشَري، وفي قلب عاصمة الدلتا، أدرك شعور أبيه. الحقيقة أنه لم يدرك، لم يقطن السيد في البيت الجديد إلا ١٠ سنوات، وأحمد الحزين على الفراق لم يقطن إلا ٥ سنوات، ومع ذلك يشعران باليُتم تجاه البيت. بينما عزت قضى عمره كله في البيت المهدوم، ووُلِد البيت على يد عزت من الأصل.

أضاءت الغرفة بنور الشمس من ناحية شباك السيد. رذاذ خفيف يتساقط والشمس تبدو غائمةً قليلًا لكن ضوءها خفَّف من قسوة وجود جثة بجواره، ومن قسوة التهديد الذي تلقَّاه من سامية.. لأول مرة يشهد السيد شروق الشمس. سمع كثيرًا عن رومانسية المشهد لكنه لم يكن يُبالي. نظر إلى الشمس يحاول تدقيق النظر فيها، يتحداها بعينه لسبب لا يعرفه ولا تعرفه الشمس. رأى شبحًا خافتًا لقوس قزح يظهر إذا دقَّق النظر.

بكى حين رأى ألوان قوس قزح، هذه المرة انتابه شعور بأنها رؤية الوداع. كان القوس مرافقًا له في لحظات حياته الفارقة، لكنه كان مشغولًا بعيش تلك اللحظات عن إدراكها. الآن بعد مرور ما يزيد على ثلاثة عقود على أوَّل رؤية لقوس قزح، يُدرك السيد وجود هذا الصديق.

أول مرة رآه أثناء نزوله من القطار حين سمع عن المشروع اللوجيستي في منشأة الأوقاف. كانت السماء قد منحت الأرض بضع قطرات من المطر في هذا الليل المتأخر. وحلّت كشافات المحطة القوية محل الشمس، فبزغ قوس قزح على سماء المحطة. لم يره حينها، لكنه سمع مجموعة من الأطفال تصرخ لأمهاتهم لينظروا نحو قوس قزح بالأعلى.

لم ينظر السيد حينها، لو عاد به الزمن لنظر. لكنه انفعل لأن الأطفال توقفوا فجأة فاصطدم بهم؛ لأن الأرض الزلقة لم تساعده في فرملة حركته المتعجلة.

أما المرة الثانية التي تذكرها السيد الآن كانت أثناء عودته من القاهرة في الميكروباص. تولت مسّاحات الميكروباص إزالة قطرات المطر من على زجاج السيارة الأمامي لكنها لم تزله من طبقات الجو. الشمس التي غطاها سحاب المطر لبضع دقائق عادت من غيابها غاضبة، فأرسلت نيرانها لتحرق كل البخار المتراكم في الجو. فبزغ قوس قزح قويًّا ولامعًا. لم يستوعب عقل السيد أنه رآه حين رآه، فحينها كان مشغولًا بالبحث عن مبلغ إضافي ليُكمل به أجرة الكرسيين.

لا يذكر كم مرة رآه بعد تلك المرة، لكنه يذكر مرة أثناء دخوله لمحلّه في المنطقة اللوجيستية بعد أن صار إمبراطور الأجهزة الكهربائية في السوق. المطر عطّل المستشعرات في الأبواب الإلكترونية التي تُفتح بمجرد رؤيتك، فاضطر السيد للوقوف خارج المركز التجاري حتى ينتهوا من إصلاحها.

الناس حوله يرفعون المظلّات لتحميهم من المطر إلا هو. لولا الإحراج لقفز في قلب المطر المرتد عن أرضية المكان الخرسانية. خفت المطر تدريجيًّا وسطعت الشمس وأحضرت معها قوس قزح هدية للواقفين خارج المكان.

طفلة لا تجاوز ٤ سنوات صرخت كأنما لدغها شيء. لاحظ السيد رُعب أمها وهي تسألها: ماذا حدث؟ وكل العيون نظرت للطفلة. أشارت الطفلة وصراخها لا يستمر نحو السماء. ضحكت أمها واستدارت للعيون التي تنتظر تفسيرًا، أن ابنتها أول مرة ترى قوس قزح. شاهدته في التلفزيون وفي كُتب الحضانة، لكنها لم تشاهده حقيقة إلا الآن.

انصرف السيد عن الأم إلى الطفلة. فتحت عينيها بقوة كأنما تخلق مجالًا أكبر للإبصار كي تحيط ببداية القوس ونهايته في لحظة واحدة. بدأت بسبابتها تعدُّ الألوان وتنطِق أسماءها. ثم جرت خلف والدتها وخرجت بعد ثانية من الجهة المقابلة بصندوق بلاستيكي به قضبان من المقدمة وفتحات عديدة من الجانبين.

رفعت الصندوق جهة قوس قزح وقالت انظر يا بُوبي، هذا هو قوس قزح. نظرت لأمها قائلةً: لماذا لا يفرح بُوبي؟ احتارت الأم لثوانٍ ثم قالت: إن الحيوانات تختلف عن البشر، ربما الكلب لا يرى قوس قزح؛ لأنه لا يرى الألوان.

ابتسم السيد وقفز في الحديث قائلًا: ربما هو مِثلي حين كنتُ صغيرًا كنا نملك تلفزيونًا أبيض وأسود فقط. نظرت الأم للسيد متعجبة من تطفُّله، فأخذت ابنتها وابتعدت عنه قليلًا، قائلةً: لا يا حبيبتي، الكلاب لا ترى بالأبيض والأسود فحسب، هي ترى الألوان أيضًا.

تدخلت سيدة أخرى تشاهد ما يحدث من البداية قائلةً: الكلاب ترى الألوان فعلًا، لكن ليست بنفس قدرتنا على تمييز درجات الألوان، ولا تراها بنفس السطوع الذي نرى به الأشياء.

نظر السيد للطفلة التي وجدت نفسها فجأة في قلب معركة علمية فوجدها تنظر إليه أيضًا. تبادلا الابتسام ونظرا معًا لقوس قزح. انطلقت صافرات الأبواب الإلكترونية تعلن عودتها للعمل، فأسرع الواقفون للدخول. بقي السيد منفردًا بالخارج ينظر لقوس قزح، ماذا لو أن الكلاب لا ترى قوس قزح، لكن بُوبي وحده رآه، وأدرك أنه رأى شيئًا لا تراه باقي الكلاب، ولن تراه على امتداد حياتها، ولن تراه سلالته ذاتها أبدًا؟!

قطعت بضعُ طرقاتٍ على باب الغرفة تسلسُلَ أفكاره. نظر للباب فوجده

ينفتح ووجد خلود تنظر إليه تنتظر إذنًا بالاقتراب. فلم تُرد أن تقاطع خيالاته مع نور كما فعلت المرة الماضية. ابتسم السيد وقال: لا داعي للإحراج. قالت خلود: جئت لأخبرك أنهم أبلغوا أهل خميس بالوفاة وهم في طريقهم. كما قرروا إخراجك من المستشفى؛ لأن الوزارة بأكملها في طريقها للمستشفى وسوف تُدقق في كل شيء. فقرَّروا إخراجك كي لا يُجازى أحد بسبب وجودك رغم عدم احتياجك للعلاج.

أشار لها السيد يدعوها للاقتراب والنظر من الشباك لقوس قزح الذي صار شاحبًا أكثر. اقتربت خلود ونظرت للشباك. التفت لتسأله شيئًا فبادرها بسؤاله: ماذا لو أن كلبًا رأى قوس قزح؟ لم تضحك خلود ولم ترد، فلم تفهم السؤال.

رد عليها السيد: الكلاب لا ترى قوس قزح، فلو أن كلبًا واحدًا فقط رآه، وأدرك أنه رأى ما لن يراه غيره، فستكون هذه اللحظة هي ذروة حياته، وسيعيش حياته يستعيد تلك اللحظة، يحكي عنها، يكرِّر تفاصيلها، يُضيف إليها ويحذِف منها حتى يصل إلى قصة مثالية تناسب تفرُّد اللحظة التي عاشها. لكن مشكلة الذروة أن ما بعدها لا يكون إلا الهبوط، ليس إلا الانحدار من الذروة إلى القاع.

المحظوظون فقط من وصَل هبوطهم إلى خطٍّ مستقيم عند أي مسافة، لكنه استقر فاستقروا هم كذلك، علموا أن الذروة كانت حدثًا نادرًا لن يتكرر، وأن الهبوط مُستبعد، وعليهم أن يعيشوا على هذا الخط المستقر. أما أنا فكانت ذِرْوتي مثل ذروة الكلب الذي رأى قوس قزح، يوم رأيت القوس لأول مرة، وأنا في محطة القطار حيث سرقت من القدَر المعلومة التي ستغير حياتي.

لكن لحظة غادرت بالمعلومة كان المُنحنَى قد أخذ في الهبوط. لم ألحظ هبوطه؛ لأنه كان بطيئًا جدًّا؛ بطيئًا لدرجة تُشعرك بأنك ما زلت على قِمة المنحنى، وأنك تعيش الذِّروة.

لكن بعد أن ابتعدت عن اللحظة بمسافة ثلاثين عامًا صِرت أرى المنحنى كله. كل نقطة صغيرة أوصلت للنقطة التي تليها، لم أكن أرى تلك النقاط وأنا فيها، وأنا أصنعها.

أما الآن فأراها، كنت أنحدر منذ خرجت من القطار. ولا أرى أني سأصل لخط مستقيم يا خلود. الصفرُ يبدو بعيدًا جدًّا، وإذا لم يكن وجودي هنا هو الصفر فما الصفر؟! إذا لم يكن كل ما مررتُ به هو الصفر فما الصفر؟!

كانت الأرض عبارة عن مستنقع نَتِن الرائحة؛ مياهه راكدة وتكسوها الطحالب الخضراء وأكوام القمامة. جدّ السيد كان يعمل مزارعًا بالأجرة عند الفلاحين، ويسكن مع والده في عائلةٍ من ٥ إخوة وزوجاتهم وأطفالهم. رأى الجد في المستنقع فرصةً للهرب من هذا الزحام والحصول على بيت خاص به وبنسله.

قرر جدّ السيد أن يردم جزءًا من المستنقع على نفقته في مقابل أن يصبح ملكه. لم يعارض أهل البلد؛ فالأرض كانت وافرة، وذلك المستقنع كان مَشاعًا لا يملكه أحد. كان الجد يُدرك أن الأرض قد تكون ملك جهة ما، لكنه قرَّر استغلالها، وإذا أرادتها الجهة بعد ذلك فسوف يصل إلى مصالحة ما. وغلب على ظنه أن أي شخص أو جهة لن يترك كل أراضي البلد، ليطالب بمستنقع يقطنُ فيه رجل وزوجته.

لم تكن الجرارات الزراعية قد استوطنت القرى، لا شيء سوى العربات التي تجرُّها الحمير. أتى الجد وأبناؤه الثلاثة بالردم من حواف الحقول والمصارف؛ نقلةً تلو الأخرى، ٣٢٠ نقلة. كان أبو السيد يحفظ العدد، فكان يملأ العربة برُفقةِ أبيه، ثم يقومان بجرها وإلقائها في المستنقع، وتقوم أمه بتسويتها قدر الإمكان. ٤ نقلات يوميًّا، كان أقصى ما تستطيعه قوتهم، ولم يكن يستطيع غيرهما إلا إحضار نقلة أو اثنتين فحسب. لكن عقيدة الأبناء من عقيدة أبيهم محروس، التعب ستتلوه الراحة، كلما نقلنا أكثر سكنّا أسرع. استمرت عملية الردم شهرًا، انتهت بأصابع مجروحة وأقدام مشقَّقة بالزجاج، ووجوه لفحتها الشمس كأنما لم تعرف البياض يومًا.

أسَّس الجد بيته، وسط للدار، وباب كبير يفتح بالكامل حين الحاجة، لكن الخوخة الوسطى تفتح لدخول فرد واحد، أو الحمار حين يعود من الحقل. ٣ غرف علوية لأبنائه الثلاثة، لم ترزق أم عزت بالبنات، فظل عبء المنزل عليها وحدها طوال حياتها.

شاهد عزت مع إخوته البيت وهو ينبت من الأرض شبرًا شبرًا. بعد أن استوت الأرض واكتست كلها بلون التراب الأسود بدلًا من الطحالب الخضراء، بدأت الزوجة في ضرب الطوب اللبن، تخلطه بالتّبنِ، وتضعه في فرن النار حتى يتماسك. طرق عزت يومًا على جدار البيت وأخبر السيد أن جدّته صنعت الطوب بصبر وإتقان جعله أكثر تماسكًا من سكان البيت، وأن الطوب صمَد في وجه الزمان بينما لم يصمد أهل الدار.

أخو عزت الأكبر إبراهيم كان فلاحًا مثل أبيه، لكن حين تزوج نجاة كرِهت عودته كل يوم بالبهائم والاستيقاظ مبكرًا ليستطيع ري الأرض قبل الجيران. أقنعته بالعمل بناءً للطوب الأحمر، رأت فيه المستقبل وأن كل البيوت ستتحول للطوب الأحمر. فأصبح إبراهيم أول بنَّاء للطوب الأحمر في القرية والقرى المجاورة، ومع غزو الطوب الأحمر زادت ثروته وأصبح مقاول أنفارٍ، ولم يعُد يعمل بيده.

الدخل الكبير دفع نجاة للمطالبة ببيت مستقلٍّ هي وبناتها الخمسة. رفض إبراهيم ترك أبويه لأنه الأخ الأكبر، لكن أشعلت نجاة حربًا خَفية في البيت بينها وبين صفية حتى ضاقت بهما الحماة وطالبت إبراهيم بالرحيل. بنى لنفسه بيتًا من طابقيْن بالمُسلح في قرية مجاورة قريبة المسافة، لكن النفوس تغيّرت لأسباب لا يعرفها إبراهيم ولا أمه، فلم يعد للبيت الكبير إلا يوم وفاة أمه.

أما الابن الأوسط فكان ناقمًا على الفِلاحةِ من بداية حياته، يداه ناعمتان كالبنات، هكذا يخبره أبوه دائمًا. أمه لم تسمح لمحروس بغرسه معه في الحقل كما فعل مع إبراهيم من قبله، والسيد من بعده. لم يطاوعها محروس في هواها إلا حين ولدت السيد. اطمأن الرجل أنه لم يعُد أعرج بعد اليوم، فالاثنان هما ساقاه اللتان سيواجه بهما الزمن. وترك لها عليًّا؛ عامله محروس كأنه فتاة، وكذلك فعلت سمية دون قصدٍ. فلكي تثبت لمحروس أن لعليٍّ فائدة كانت تشركه معها في عمل المنزل، فأتقن الطهي والتنظيف.

أما علي فكان يهرب من الحقل في الدراسة. لم يحبّها، لكن ذهابه للمدرسة يعني عدم ذهابه للحقل، فاختار المدرسة. وصل إلى مرحلة الدبلوم فلم يختر دبلوم الزراعة كما يفعل نابهو القرية، فلم تكن الوظيفة في الجمعية الزراعية مطلبه. اختار التجارة كي يهرب من القرية لأي شركة من شركات الخليج. وبعد أن أتمها توسَّط له قريب يعمل في الخليج وسحبه إلى الكويت. يوم سفره كان مأتمًا في البيت.

يروي عزت للسيد أنه لو ماتوا جميعًا لما حزِنت سُمية مثلما حزنت ليلة سفر علي. سخرنا منها لكن لاحقًا عرفنا لماذا كانت تبكي، كانت تشعر بأنه لن يعود. قلنا لها لو أعجبه البلد هناك فليقم هناك، طالما سيكون سعيدًا. قالت إننا لا نفهم شيئًا، علي لن يعود. بعد بضع شهور فقط صدقت نبوءتها، فقد قامت الحرب وانقطعت أخباره. ولم يعُد علي لمصر في حياة عزت، ولا في حياة السيد، أو على الأقل في الفترة التي كان السيد واعيًا فيها لأحوال الدنيا.

كان عزت ظل أبيه في كل شيء؛ في الحقل وفي جلسات الصلح وفي المسجد. كان تكثيفًا لحنان أبناء ثلاثة لم يعودوا موجودين. رغم أنه تواجد معه في كل لحظة إلا أن محروسًا عامل عزت كالابن المؤقت، سيرحل مثل البقية الآن أو بعد فترة. اعتمد عليه محروس في مهام عديدة، لكنه ظل متأهبًا للحظة التي يخرج عزت فيها من البيت، إما بغواية امرأة أو نداهة السفر. سمية كان يُخالجها نفس الشعور، لكنها قاومته بكل طاقتها.

لم تسمح له باختيار زوجته كما فعل الأكبر. اختارت له فتاةً متوسطة الحُسن كي لا تغتر عليه بجمالها، ولدى أهلها حقل ومواشٍ كي لا تقول إنها لا تعرف كيف تراعَى البهائمَ، وعائلتها كلها في قرية عزت كي لا تحنَّ لجوار أهلها. منحتها المقاعد الثلاثة؛ غرفة نوم وأخرى للطبيخ وأخرى للمعاش واستقبال الضيوف.

لم يعترض عزت، بل أعجبته صفية حين رآها. ملامحها هادئة، قمحية ليست سمراء بفعل شمس الحقول، لسانها مهذَّب، لا تحب مخالطة نساء القرية. ولم يُرد عزت في زوجته أكثر من نبذ البذاءة وعدم الاختلاط بنساء القرية أكثر من اللازم.

مات الجد محروس بداء الكَبِد، وانكسرت شوكة سمية بوفاته. فبات البيت مِلك عزت وصفية ورضيعٍ صغير.

علم الابن الأكبر بوفاة الأب، فحضر للعزاء ثم واسى الأم وانصرف. ماتت سمية بعد محروس ببضعة شهور، فحضر الأخ الأكبر ثانيًا وواسى السيد، وجلس يطالب بميراثه. قُسِّمت التركة على ثلاثة، لكل واحد نصيب، وتم تقسيم نصيب الابن الغائب على الأخويْن، مع وعد أن يُرد له نصيبه حين يعود، أو يظهر له نسل بعد التأكُّد من صلة الدم.

لم يُرد الأخ الأكبر أن يبقى في المنزل، وطالب بنصيبه مالًا. استدانت صفية من أهلها، فكتب لها عزت ورقةً بما أعطته. مزَّق والد صفية الورقة بعد ذلك، وأخبره أنه يعامله كأحد أبنائه ولا يقبل أن يكتب له ابنه ورقةً على نفسه، فملك بذلك رقَبةَ عزت طوال عمره، بينما صفية امتلكت قلبه من اليوم الأول.

مات الرضيع، محروس الصغير. لم تكن ٣ أشهر كافية ليتعلق عزت بالرضيع، لكنّه حزن لحُزن صفية، يراها صامتة لا تولول ولا تسب القدر، بل مستسلمة له راضية فيحزن عليها أكثر. يخبرها عزت بأن الأطفال يموتون، وسينجبون غيره الكثير، لكن الحزن بداخلها ليس لوفاة الصبي، بل لأنها السبب في وفاته.

تقول إن سقوطه من على السرير إهمال منها، وكان يجب عليها ألّا أن تتركه، وكان من المفروض أن تضع حوله بعض الوسائد، أو تُنيمه على الأرض لا على السرير. يخبرها عزت بأن الرُّضَّع في هذا العمر لا يتحركون ولا ينقلبون، فمن غير المنطقي أن تضع حوله أي شيء. تزيحه صفية بيدها بعيدًا عنها: اتركني لحالي، وتغرق في حُزنها الصامت مرة أخرى.

ظلت ملاءة الحُزن الرقيقة تغلِّف البيت حتى جاء الابن الثاني، ثم السيد. مات الابن الثاني في فترة تجنيده، وبقي السيد.

كبر السيد وحصلت صفية على ميراثها من أهلها، ٨ قراريط كاملة. فترك الأب الزراعة عند الناس مقابل الحصول على ربع المحصول في نهاية السنة، وبدأ يزرع في أرضه الخاصة. ليَرُد الدَّيْن؛ فمع كلِّ محصول كان عزت يشتري قطعة ذهب لصفية، تقبلها صفية وتخبره بأنْ لا داعي لكنها ستحفظها لعروسة السيد.

تراكمت السنوات على رأس عزَّت وصفية، لكنها ظلت صبيّة، كما كان يدعوها عزت. ماتت صبيةً لكن دون ذهَبها، وكانت تُخبر عزت بأن الذهب للسيد في كل الأحوال؛ سواء أخذه لعروسته أو لمشروعه، لا يهم.

قامت خلود من على سرير خميس وتقدّمت نحو السيد، ربتت على كتفه وأخبرته أن كل شيء سيصبح أفضل، ما دام حيًّا فكل شيء يمكن تعويضه. لم يجادلها السيد ولم يَرُد. هي تحتاج المواساة لا هو، لكنه نسِيَ ما سمعه من العاملات أن طفلتها ذات السنوات الأربع قد غرقت.

لا تعرف أنه يعرف ولم يُرد أن ينكأ الجُرح؛ فلم ينطق. ولم تعرف هي الأخرى ما تقول فسكتَت. لحظات صمتهما كانت أقسى على كلٍّ منهما، فانجرف عقلهما مع الذكريات التي يخافانها.

نطقت خلود فجأة لتراوغ الذكريات التي تحاول افتراسها، ما موضوع مسك الشباك؟ ابتسم السيد فارتبكت؛ خلود هي الوحيدة التي لم يَبْد عليها الفضول لمعرفة خبايا السيد طوال إقامته في المستشفى. والعفوية التي انطلق بها السؤال توضح أنه يَختَمر في نفس خلود، وكل العاملين في المستشفى، منذ رأوه يُمسك الشباك للمرة الأولى.

رد السيد على خلود ردًّا مقتضبًا: عادة قديمة، فاعتذرت عن السؤال وتحركت نحو الباب. قال لنفسه إذا لم تواسِهَا فلا تكن سببًا في إحْرَاجها. أظن الكل يريد أن يعرِف الإجابة؟ سألها ليُتيح لها إلقاء عبء السؤال على آخرين مجهولين. استدارت خلود قائلةً: كلهم لا يبالون بالسبب، هم يريدون معرفة موقف زوجتك من تلك العادة؟

فتح السيد عينه متسائلًا: كيف عرفوا أني متزوج؟ قالت خلود: من أثر الدبلة حول إصبعك. رأيناها حين قام العمال بتحميمك حين دخلت المستشفى. كانت يدك تميل للاسمرار بفعل الشمس والتراب، لكن أثر الدبلة كان أفتح من باقي الإصبع.

انتفض السيد وأمسك بيده، الدبلة قد نسيها بالفعل! أين هي؟ سألها هل جاء للمستشفى بها؟ هل أخذها أحد العمال؟ نفت خلود كِلا الأمرين، وقالت إنها كانت واقفة لحظة دخوله للمستشفى ولم يوجد معه شيء غير الساعة وهاتف مكسور و٣ جنيهات معدنية، ولا شيء آخر.

غاص السيد فيما تبقَّى من عقله يحاول أن يقتفي أثر الدبلة، أين خلعها؟ ومتى خلعها؟ لكن عقله لم يمنحه أي إجابة. استاءت خلود للمرة الثانية، فقد ذكَّرته بما نغَّص عليه حاله.

استغرق السيد في أفكاره، ولم يلحَظ خروج خلود من الغرفة. كانت معه

يوم المحكمة بالتأكيد، يذكرها بوضوح؛ لأنها ظهرت صَدِئة بشكل ملحوظ حين نظر إليها في ضوء الشمس الداخل لقاعة المحكمة. وكانت معه في قهوة شهود الزور؛ لأنه طرق بها بضع طرقات على الطاولة. وكانت معه وهو يتناول عصير القصب، فقد دخلت تحتها بعض قطرات الماء فخلعها ليجفف إصبعه.

فكّر أنه ربما نسيها هناك، لكنه متأكد أنه ارتداها مرة أخرى. أجَل كانت واسعة جدًّا على إصبعه الذي فقد مثلما فقد سائر جسده العديد من الكيلوجرامات، لكنه ارتداها.

الحادثة، الحادثة. تذكَّر الآن، اختفت الدبلة بعد الحادثة. بالتأكيد سقَطت حين صدمه الموتوسيكل في شارع البحر. ارتاح السيد حين اكتشف ذلك؛ لأنه اطمأن أن عقله لا يزال قادرًا على العمل. يمكنه اقتفاء أثر شيء، كل الأشياء التي يقتفيها تُحزنه، لكنه يعمل على الأقل.

حين وصل إلى سر الدبلة تذكر خلود وسؤالها. لكنه لم يجدها في الغرفة. الشمس اتخذت موقعها في السماء، وبدأت سيارات الإسعاف في الزئير أسفل المستشفى. نظر من الشباك فرأى العديد من الهواتف المحمولة وكاميرات القنوات التلفزيونية موجَّهة إلى المستشفى، فارتد للخلفِ.

قام ونادى خلود. سمعته إحدى العاملات فأوصلت نداءه لخلود فحضرت، اعتذرت لأنها ذكّرته بانفصاله عن زوجته، ضيّق عينه قائلًا: لم ننفصِلْ، فقط سقَطتِ الدبلة ولم ألْحظْها. لكن كان يجب أن ننفصل فعلًا يا خلود. قالها كأنما اكتشف حلًّا لمعضِلةٍ كانت تؤرقه: لماذا لم ننفصل يا خلود؟ ابتسمت خلود قائلةً: لا أدري، ربما كنت تحبُّها.

رد السيد سريعًا: مات الحب في مرحلةٍ ما، مرحلةٍ مبكرة لم يكن معها أوان الطلاق قد فات. لكن لا بد أن أشياء منعتني، لا بد أنها موانع قوية. استطرد: لم أكن سأُهينها في الطلاق؛ كانت ستحصل على الماديّات كأننا متزوجان، فقط تحصل على حريتها، وأنا أحصُل على كرامتي، فلماذا لم أُطلقها يا خلود؟

دون تمهيد عاد لموضوع الشباك قائلًا: "الإمساك بشباك السرير عادة أجبرتني عليها أمي بسبب وفاة أخي الرضيع بعد سقوطه من على السرير، وكنتُ أتحايلُ عليها بإمساك شباك السرير في أول الليل حتى تَغطَّ في النوم، حيث كانت تنام سريعًا. حين كبرت وسافرت إلى القاهرة للدراسة ثم العمل لم أعُدْ أمسك بشباك السرير.

وهي أيضًا نَسيت ذلك الأمر، بعد وفاة أخي الأكبر في الجيش. أتذكَّر أنها

رفَعت يدها للسماء حين وصلها خبر وفاة أخي، تُخاطب ربنا قائلة: فَهِمتُ، فاترك لي الأخير".

قاطعته خلود متسائلةً عمَّا فَهِمته الأم. ابتسم السيد قائلًا بأنها فسَّرت كلامها بعد سنتين من وفاة الأخ حين سألها. قالت: إنها فهمت أن الله هو القادر على حمايتهم وقبض أراوحهم. وأنها ظنَّت أنها بالحلقات المَعْدنية على شباك السرير ستحمِيهم من الموت، لكنه أخَذ الثاني بعيدًا عن السرير وهو واقف على قدمَيه وفي عزّ الشمس، لهذا قالت له: فَهِمت، ولهذا طلبت منه أن يتركني لها، فلا يُعاقبها على ما ظنته تحدِّيًا لربنا.

المهم، قالها السيد وهو يسحَب جسدَه للخلف كي يسند ظهره على الجدار. لم أعُد أفعل ذلك. وحين تزوجت بالطبع لم أكن أمسك بالشباك، ولم تعرف زوجتي بهذه القصص كلها.

أكمل كلامه يجاوب عن سؤال لم تَطْرحه خلود، لكن طرحه هو قبل أن يُجيب عليه: لماذا عُدت لهذه العادة بعد هذا العمر؟ لا أعرف. هكذا فسَّر الأمر. واستطرد: لا أعرف لماذا طلبتُ نقلي لغرفة بها شباك. ربما هي الرغبة أن أشعر بأن هناك ما يحفظني عن السقوط الذي أشعر به منذ سنوات.

أريد شيئًا أتشبَّث به بعد أن مات كل ما يمكن أن أتشبث به، ولا أعرف هل أنا والد لأحياء فيحق لي التشبث بهم وإلقاء ثقلي عليهم؟

بدت على خلود علامات الحيرة، لكن السيد لم يكن ينظر إليها من الأصل. كان يحدق في الباب ظاهرًا، لكن الفراغ كان مكان تحديقه الحقيقي. أكمل كلامه: "السيد القديم كان يمكن أن يُحلل الأمر ويخرج بنظريات فلسفية جديدة ويسرد نظريات قديمة تُؤكد كلامه. لكن هذا السيد الذي أمامك لا يعرف كيف يفعل ذلك، أو لم يعد يريد".

أفاق من شروده ونظر لخلود قائلًا: أنا لا أعرف لماذا أتمسك بالشباك الآن، ولا أعرف لماذا لم أطلِّق نور، ربما كنت أحبها فعلًا.

التفت السيد الراقد إلى ولده النائم يقول له إنه يحفظ كل شبر في الشقة ولم يفعل إلا أنه اشتراه، ودفع مالًا لعمال يرفعونه، ولعمّال آخرين يعدّونه. لم يفعل إلا المراقبة والانغماس مع الصنايعية محاولًا تناسي أحزانه. فكيف بالجَدِّ الذي يحفظ كل مَقْطَفِ ردمٍ وضَعه، وكل ذرَّة تراب تآلف منها الطوب.

سكنّا هنا ١٠ سنوات فقط يا أحمد، فكيف بمن عاش في منزل واحد ٦٠ عامًا. الآن يضع السيد قدمه على أول خطوة في طريق طويل لاكتشاف شعور أبيه. الآن قد يَفهم لماذا حين غاب ضوء النهار ذات مرة لم يَقُم عزت من مكانه.

انتظره السيد بعد العشاء ليتناول اللُّقَيْمات التي يتناولها تحت إلحاحه كل يوم. ضَجِر السيد بجلوس أبيه خارج البيت ونومه على عربة الحمار، لكنّه هون على نفسه بأن البيت حين يكتمل سيكتشف عزت الاختلاف والراحة.

خرج السيد يبحث عنه فوجده في مكانه؛ عينه مفتوحة على البيت. ناداه من أمام البيت فلم يجب، تململَ وناداه بنبرةٍ حازمة يحثه على القيام فلم يتحرك. نفخ السيد بعض الهواء من فمه ثم توجَّه نحوه غاضبًا وحرّكه فسقط على وجْهه جهة البيت.

برك السيد بجواره، جلس لم ينطق، بكى بكاءً صامتًا كقابيل حين انتهت لحظة الغواية واكتشف أنه قتَلَ أخاه. لم يأتِ الغراب هذه المرَّة، رفع السيد رأس أبيه من الأرض ووضَعها على فَخِذه وجلس يستند للحائط. لم ينادِ أحدًا، طالما لم يعرف الناس فأبوه حيٌّ، لن يكرر الخطأ الذي فعله مع أمه. لو لم يأتِ المعزُّون لما استمرت في الموت. وفاة عزت هي الأخرى وهْمٌ، الناس وحدهم سيجعلونها حقيقة.

ارتفعت أصوات المآذن تدعو لصلاة الفجر، استجاب لها العدد المحدود ذاته والوجوه نفسها التي تستجيب لها كل يوم. افتقدوا عزت، فقرر الشيخ عبدالله، شيخ المسجد، أن يمر على بيته. وجد السيد يبكي وأبوه على فَخِذه.

فهم الشيخ الأمر. طرق بعض الأبواب بعصاه الخشبية، تجمّع الأهالي وأيقظوا بعضهم. حملوا السيد، ورفع مجموعة منهم جُثمان عزت وتوجَّهوا به لبيت أحد الجيران؛ فناداهم السيد وطلب منهم أن يدخلوا به إلى بيتِه، وأن يتمَّ الغسل والتكفين في البيتِ. لم يُرد السيد أن تزيد مأساته بأن جُثمان أبيهِ يخرُج من بيتٍ غير بيته.

تراجعوا خُطوتين ليتوجَّهوا نحو بيت عزَّت. وضعوا الجثمان على حصيرٍ أحضرتها جارة، وانطلق الشباب لإعداد المكان ليَصلُح للغسل. جلس السيد على يمين أبيه يبكي، لفتت قبضة عزت المغلقة نظره، فمدَّ يده يحاول فتحها.

تيبَّست يده عليها، فقاومت الفتح. كأنما لم يرد عزت أن يراها السيد. تحت إلحاح السيد خضع الأب فاستجابت مفاصل اليد. قبضته مغلقة على قطعة من الطوب اللَّبِن الساقط من الهدم، أدرك السيد أنه قتَل أباه. وأن الدليل يرقُد في يد القتيل. استغاثة من أبيه للناس، يخبرهم عن أن القاتل ابنه، وأن أداة القتل هَدْم البيت.

دفن السيد أباه، بعد أن دفن أمّه قبلَه، ودفن أخاه الأكبر قبلهما. بات السيد وحده، نخلة خاوية في بيت مسلح لا تصل إليها الرياح فتكسرها، ولا تعرف كيف تمد جذورها إلى الطين لتمتص منه الغذاء والونس.

لم يقف السيد في العزاء، جلس في وسط الجالسين كأن العزاء لا يَعْنيه. يتوافد الناس، يصرُّون على مصافحته، فيمد يده كأنه لا يعرف علاقته بما يحدُث، ولماذا يصرون على مصافحته؟!!

الآن يفهم السيد شعور أبيه، ليس عزت، لكن شعور أبيه الأول آدم، حين وُضِع في الأرض وحيدًا. وعليه أن يبدأ هو إعمارها، أرض قاحلة لا سعادة فيها ولا موت، وعليه أن يمنحها السعادة، ويلد من سيموتون.

الأرض التي وُضع السيد في وسطها لا تتوقف عن الحركة، فلم تتوقف أعمال بناء البيت إلا أيامَ العزاء الثلاثة. لكن أهالي البلد تجمَّعوا وأصروا أن الحُزن في القلب ولا بد للسيد أن يتزوج ليجد من تراعيه؛ العمال على اختلاف حرفهم كانوا من القرية، فاستمروا في العمل دون التساؤل عن الأجر، وكانوا صادقين في أنهم لا يريدون أجرًا. بعد شهرين من الصدمة بدأ السيد يدرك ما حوله، فأعطاهم أموالهم.

أتت مرحلة التشطيبات الأخيرة فتدخَّلت نور. حين رآها السيد بعد شهرين تساءل هل حضرت نور العزاء؟ ربما رآها مرة أو مرتين طوال الشهور الماضية، أو ربما لم يرها إطلاقًا. هل حدّثته على الهاتف، السيد لا يتذكَّر.

لم يشغل باله بأنه لم يتذكَّر، بل تعجب أنه لم يفتقِدْها. لم يلحظ وجودها؛ لأنه لم يلحظ غيابها. سحبته نور من شروده وأخبرته بأنه لا بد أن يستفيق السيد من غيبوبته، ليبدآ الإعداد للزفاف واختيار أثاث البيت وألوانه، فقد دخل المنزل في مرحلة التشطيبات.

لم ينسَ السيد هذه الكلمة طوال حياته، شعوره بالقتل بالنسبة لنور

"غيبوبةٌ". فقْدُ أخيه ثم أمه ثم أبيه غيبوبةٌ يجب أن يفيق منها. وجوده الآن وحيدًا في الدنيا غيبوبة يجب أن يفيق منها.

ما بين دخول المحل وبين كلمتها عن الإفاقة من الغيبوبة ٣ سنوات، هي مدة خطبتهما. في تلك السنوات اكتشف السيد جوانب عديدة من شخصية نور؛ أسرتها البسيطة وأحوالهم المشابهة لأحوال السيد قبل بيع الفدان طَمأنَتْه.

تذكر مقولة زميل له في المطعم أخبره ألَّا يتزوج امرأة أغنى منه أبدًا. برَّر الزميل كلامه بأن المرأة الأغنى من زوجها لن ينجح الزوج في تقديم شيء لها. سيظل يكدح ويتعب وحين تتحسن أوضاعه ويرتفع مستواه الاجتماعي، لن تشعُر هي بشيء؛ لأنه لم يفعل لها إلا أن أعادها لمستواها الأصلي. وإذا لم يُفلح الرجل في أن يصبح ثريًّا ربما نفِدَ صبرها على فقره ومستواه المنخفض فانتهى الزواج. يتذكر السيد مقاطعة زميل آخر قائلًا: إن المرأة يمكن أن تصبِرَ ويستمر الزواج، وأنه يعرف قصصًا مثل هذه كثيرة.

رد الزميل الأول بأنه فعلًا يمكن أن تكون المرأة أصيلة وتصبر، لكن الفكرة كلها ستكون في شعور الرجل. سيظل الذنب يأكله؛ لأنه أنزلها من مستوى أعلى إلى مستوى أقلّ، وسيشعر بالفشل لأنه لم ينجح في إعادتها لمستواها، فربما يكون الرجل هو سبب انهيار الزواج بسبب الضغط الواقع عليه من نفسه هو، دون أن يكون للزوجة أي علاقة به، فيعاقبها على شعوره هو.

النسخة الأولى من نور مرِحَة، تحب الحياة والضحك. كونها أكبر إخوتها، وسنها الذي يبدو في الأرياف سن العوانس، جعلاها متعقِّلة ورزينة، تُخطط مع السيد كيف يستثمر أمواله دون تبذير. دور الأب الذي لعبته مع أهلها جعل والد السيد يحبها ويطمئن أنها ستكون مناسبة لتوجيه السيد.

خصوصًا حين اقترحت أن يبدأ السيد مشروعًا للأجهزة الكهربائية وبيعها، وتفسيرها أن الأجهزة لا تخسر لو لم يبعها للزبائن فيمكن أن يبيعها لأي تاجر آخر ويسترد رأس ماله على الأقل، وحتى لو لم يبعها فأسعارها تزداد بوجودها في المحلِّ، وهي أجهزة لا تأكل ولا تشرب. وعرضت مساعدته بما تَملِكه من معلومات عن الموزِّدين والشركات وأذواق الزبائن، فقد اكتسبت خبرة معقولة من الأشهُر التي عملتها في المحل السابق.

استبشر السيد بإعجاب والده بها ورضاه عن الاختيار، فشعر أن نور فازت بجائزتين؛ جائزة القلب منحها لها السيد، وجائزة العقل منحها لها أبوه. ملاحظة أبيه الوحيدة كانت اهتمام نور بجمالها وزينتها، وأن ملابسها ربما لا

تناسب قرية السيد. لكن السيد تجاهل الأمر قائلًا إنها ملابس العصر، وإنها مناسبة للطبقة الجديدة التي دخلها.

على مدار السنوات الثلاثة أخذت نور تتغير ببطء شديد، كنمو طفل لا يلاحظ أبواه أنه ينمو. لم يلحظ السيد فيها إلا أنها صارت انفعالية بعض الشيء، ربما لا تُحسِن تقدير طريقة الانفعال المناسب، تقرصه من ذراعه مثلًا، ولا تُحسن تقدير المكان المناسب للانفعال، كأن تصرخ فيه أمام عمّال المحل الذي يؤسِّسه في المركز التجاري أو في مقهى فخم يملؤه الصمت.

لكن في اللحظة التي دعته للإفاقة من غيبوبته أدرك السيد أنه صار أمام نور سليطةِ اللسان، لا تتردد عن السبِّ بصوت مرتفع، ولأي أحدٍ، وبأشد الألفاظ قُبحًا.

لم يفهم السيد من أين اكتسبت تلك العادة، لكنها كانت شديدة البراءة أمام الجميع. إلا معه، حين تحكي عن أي شخص، أو حتى تتشاجر معه لأي سبب كانت تسبُّه. ذات مرة بصقَت عليهِ، التفت السيد للجالسين في الكافيه فلم يجد حوله أحدًا. كانت الحركة خارج استيعابه، فلم يُصدِر أي تصرف إلا أن قام ومشَى.

عبر الهاتف طيّبت نور خاطره، ووعدته بألا يتكرَّر الأمر. اعتذرت له بمشاكل في طفولتها جعلتها حادة الطباع، لم يصدّقها السيد، عزا ذلك لاضطرارها للعمل، والدفاع عن نفسها ضد كلمة من هذا ومحاولة من ذلك، واقتنع بذلك التفسير، حِدّتها وجرأتها طمأنته أنه لم يُصِب أحد منها مثلما أصاب.

تتعامل نور بمنطق الأوامر، تغلّفها بعبارات الرجاء حينًا، تتدلَّل على السيد حينًا، وأحيانًا تطلب فسخ الخطبة، ثم الطلاق لاحقًا، إذا لم يُنفذ ذلك الطلب. السيد دائمًا ما يُنفذ الطلب؛ لأنه لا يريد فسخ الخطبة. كان لجمالها سطوة على القلب أدركتها نور؛ متوسطة الطول، نحيفة بشكل مُتعمَّد عبر الأنظمة الغذائية. تذهب إلى جيم بُدائي باستمرار لمنح كل منطقة من جسمها الشكل المثالي. تدخر بعضًا من مرتبها عبر الشهور كي تشتري مساحيق التجميل من علامة تجارية عالمية.

كانت نور عالمًا جديدًا لم يَخْبُره الشاب الفقير المعتاد على التكدس في قطار الثانية والنصف من قبل. دائمًا يراها بعين ذلك الجالس في القطار. واقفةً في القطار يقوم من مكانه ليُجلسها، يتمنى لو وافقت أن تجلس مكانه تحديدًا، أو أن تُبادله كلمة.

تضاءل أمامها منذ النظرة الأولى، لكنه لم يستطع استعادة حجمه الطبيعي أمامها أبدًا. حتى في ليلة الزفاف وقَف أمام جسدها العاري مرتبكًا، خِبرته الأولى، وللمرة الأولى يرى أنوثة كاملة. لا يسترق النظر، بل وفرة مُتاحة أمامه تنتظره.

لم تكن تنتظره حقًّا، بل كانت تطالبه بالتحرُّك. لم تهدّئه أو تربت على كتفه، لم تَمُت خجلًا أو تتدثر باللحاف لتواري جسدها، بل كانت تسبُّه ليتحرك، فكانت نقيض كل الأساطير التي تشبَّع بها السيد عن ليلة الزفاف. استمر صيامه أمامها قُرابة أسبوع، لا أقارب له ينصحونه، ولم تكتم نور ما حدث عن أهلها. فهم السيد ذلك في نظراتهم وتلميحاتهم، لكن دون أن يُفهِمه أحد ماذا يفعل.

بعد أسبوع جاء عبدالرحمن وجاء معه الفرج. حكى له السيد كل شيء، طمأنه عبدالرحمن بأن الأمر طبيعي. لكن استأذن وعاد بعد نصف ساعة بعبوة من المنشطات الجنسية، وعلّم السيد كيف يستخدمها، وفي نفس اليوم تمَّ الأمر. لم تتحسن حالة السيد، بل زاد اهتزاز نفسه؛ لأنه أدرك أنه لن يقترب منها إلا بالحبوب. شهر كامل وهو يتعاطى الحبوب ويحتمل الإسهال الشديد وضيق التنفس كآثارها الجانبية.

في مرة اندفع دون الأقراص فتم الأمر، فودّع الأقراص. عاشا عامين كاملين دون أن تحمل نور، لم يسألها السيد؛ لأنه شعر أن المشكلة ستكون منه بالتأكيد. ولو كانت كذلك فنور لن تتورع أن تعايره في كل لحظة، فآثر السيد أن يسكت عن الأمر. لم يتحدث مع نور عن الإنجاب، وهو يعلم أنها لا تتوقف عن الحديث مع أهلها عنه.

اضطر للسفر إلى اليابان لشهر ونصف لإتمام صفقة كبرى تتعلق بإمكانية تصنيع قطع غيار الأجهزة الكهربائية في مصر. بعد شهرٍ من عودته لمَحَ نور تبكي في الحمام، لم يرها تبكي أبدًا، وقف أمام الباب ينظر من الفجوة بين الباب والجدار، فوجد اختبار حمل في يدها. لم يتبيّن نتيجته، لكنه أدرك أن نور تشتاق للإنجاب وعليه أن يتصرف.

شعر في تلك اللحظة بحب جارف لنور، ظلمها طوال السنوات الماضية؛ رآها قاسية، سليطة، لكنها حين أتى الأمر لاختبار حقيقي ولرغبتها الغريزية في الأمومة اختارت ألَّا تجرحه.

خرج السيد من الشقة، وذهب لعيادة طبيب ذكورةٍ. طلب منه الطبيب بعض التحاليل، فتوجَّه لمعمل أخذ من السيد عينة من السائل المنوي وبعض

عيِّنات الدم، وأخبره الطبيب بأنه بناء على النتائج سوف يحدد الخطوةَ التاليةَ، وكيف سيتعامل مع المشكلة التي تظهر، وإذا كانت المشكلة مرتبطة به كزوج، أم إنه سيحتاج إلى فحص الزوجة أيضًا.

نبَّه السيد على المعمل، وعلى عيادة الطبيب، ألا يتواصل معه أحد تحت أي ظرف. سيحُضر هو لأخذ النتائج، ولتحديد موعد الزيارة القادمة للطبيب.

عاد السيد للمنزل متأخرًا، كانت نور في انتظاره متأنِّقةً على غير عادتها. دخَل السيد فاحتضنته نور، وبدأت في الحديث بنغمة هادئة، لم يشعر السيد بالتوتر مثلَما شعر الآن، شيء غير صحيح يحدُث. لحظت نور علامات التوتر عليه فاختصرت دلالها، وأشارت إلى بطنها. فهم السيد الإشارة، لكن لم يفهم لماذا كانت تبكي.

استأذن منها أنه بحاجة لدخول الحمام وسيعود فورًا. دخَل السيد يقلّب في سلة المهملات، فوجد شريط اختبار الحمل، بحث عن العلبة حتى وجدها واقعة خلف الغسالة ليعرف كيف يقرأ النتيجة، الاختبار يقول إنها حامل.

ما سقط منها هو دموع الفرح، لا بد أنها دموع الفرح كالتي تسقط منه الآن. فنور في النهاية امرأة، والأطفال بالنسبة لها دليل اكتمال أنوثتها، واحتياجها للأطفال أكبر من احتياج السيد. ابتلع السيد هذا التفسير، وسكت.

مشهد الأجندة وصفحة كمال كانا في ذهنه منذ اللحظة الأولى لكلمة نور، لم يخرجا من ذهنه أبدًا. كمال، هذا هو اسمه. تتواجد الكلمة كخلفية بائسة لكل شيء في حياة السيد ونور. يبحث في أفعالها عن علامة حب له، لا يجد. يثير الحديث عن الكمال فيجد الحديث ينساب من فمها، والعين تُشرق. والحمل الذي أتى بعد غيابه زاد من ناره.

أحيانًا شعر السيد بأنه مجرد قطعة لحم تعاشرها نور، أما من ينام معه قلبها وعقلها فكمال. زاد من حَيرته أنها لم تسأل على الأجندة، سألته مرة بشكل عرَضي في بداية الزواج، لكنه قال إنه لم يرها. سمِعها تهمس لأمها تسألها عنها، وتسأل مَن قُمن برصِّ العزال في غرفة النوم، فأنكرن جميعًا رؤيتها. فَهمت نور أن السيد رآها وتخلَّص منها، فسكتت.

طرد الأفكار وخرج لنور يحتضنها كي يُداري عنها عينه التائهة.

دخلت سامية ومعها أربعة عمَّال ذكور، وجدت السيد وخلود مرتبكين فقالت: جئنا لأخذ المجحوم. قال لها أحد العمَّال: وما ذنبه؟!! قضاء الله نفذ. نهَرته سامية؛ لأنه يرد عليها، وقالت: انقلوه من على السرير للتروللي وانصرفوا.

سألتها خلود: هل أتى أهله؟ ردت سامية بأن د. عبدالعزيز الصيفي أمر أن يتم تغسيل وتكفين جميع الموتى، ومن ينتهي تكفينه تتحرك به سيارة إسعاف بعد التواصل مع أهله؛ لملاقاتهم في المكان الذي يرغبون، أو الذهاب به حتى للمقابر. قال السيد: لماذا؟

ردّت عليه خلود: بالتأكيد يريدون ألَّا يحدث زحام أمام المستشفى أكثر مما هو موجود الآن، وستأتي لجنة من الوزارة، ولا يريدون تجميع الأهالي أثناء وصولها؛ خوفًا من أن تخرج الأمور عن السيطرة. لمّاحة، قالتها سامية لخلود. ثم توجَّهت للعمال الذين بدأوا التحرك بجثة خميس قائلةً: بعدما تغلقون باب المِصعد عليكم، اركلوا الباب ركلة خفيفة من الأسفل كي يعمل.

أخرجت سامية قائمة من جيبها وشطبت على اسم خميس. ونادت بصوت مرتفع للعمال تدعوهم ألَّا يتأخروا فهناك جُثتان في الدور يجب إنزالهما. تعجَّبت خلود من منظر القائمة وقالت: لماذا خميس مكتوب بين البقية؟ ردّت سامية بتحسّر، مصيبة جديدة من مصائب دكتور مصطفى.

حين علم أني استدعيت دكتور أحمد لتأكيد الوفاة بدلًا منه، ظن أن هناك شيئًا نُخفيه عنه غير المكتوب في التذكرة. ولمَّا حدَثت الكارثة قال إنه لا بد أن خميس هو أول من مات بسبب نقص الأكسجين، ونحن أخفينا الأمر؛ لهذا عدَّل التذكرة ليثبت أن ساعة الوفاة هي نفس ساعة وفاة البقية، والسبب هو نقص الأكسجين.

قال السيد بصوت خفيض، كأنما يحاول ألا تُدرك سامية وجوده في الغرفة: لا يهم الساعة ولا السبب، المهم أنه مات. سمعته سامية فردّت عليه قائلةً: لا، بل يهم يا فيلسوف زمانك. الحقيقة أنه انتحَر، لكن هكذا سيكون شهيدًا. في الأولى لن يأخذ تعويضًا ولن يلتفت له أحد. لكن الآن ربما تصرف الحكومة لأهله تعويضات، أو يرفعون قضية على المستشفى ليُصرف لهم أي مبلغ، المحامون لن يتركوا الأمر يمر بسلام.

خرجت سامية، وأخذت معها خلود لغرفة الجثمان التالي. بقي السيد وحده

في الغرفة. ضحك حين خطرت الفكرة في ذهنه، أنه أصبح وحيدًا يعْني أنه لم يكن وحيدًا من قبل؟ إذن، كان يعتبر جثمان خميس الهامد ونيسًا في الغرفة!

تلاشت الضحكة حين رأى الأثر الذي حفره جسد خميس على مرتبة السرير الإسفنجية. رأى المرتبة تستعيد ببطء وبرود حجمَها الأصلي، فتمحو آثار جسد خميس. لم تمرّ الدقيقة واستعادت المرتبة استواءها كأن لم يجلس عليها خميس لأسابيع طويلة، ويستقر عليها جثمانه لساعات كأنها دهور.

نظر السيد إلى السماء عبر قضبان الشباك الحديدي، قال بهمسٍ: أهذه هي النهاية؟ نُنسى كأثر جسد على مرتبة إسفنجية؟ هذا المَنسِي ترك ذريةً ستذكُره، فكيف بمن لا تعرفه سوى المرتبة التي يجلس عليها؟! وإذا كانت هذه النهاية، فلماذا تتركني حتى الآن؟ خميس غادر، فلِمَ لم يكن أنا؟ نور وأحمد رحلا، فلِمَ لم تضعني معهم في الشقة؟ لماذا تحافظ عليّ؟

نزلت دمعة من عينه فرفع يده يمسحها، فتذكَّر شيئًا. رفع رأسه سريعًا للسماء يُخاطبها: هل كان بابك مفتوحًا حين قالت أمي: اتْرُكه لي؟

هي لم ترد أن تتركني للأبد، طلبت ألَّا أموت في حياتها، هي عقَدت مُقايضة بسيطة، أخذتَ مني اثنين فاترك لي واحدًا. لكن لم تكن تعني أن تُضيف لعمري أعمار الراحلين جميعًا، فتتركني أعايش مآسي الوجود كلها. لا تتركني الآن، الكل تركوني، فلا تتركني. هل كانت دعوة أمي معناها أني أنا الذي يجب أن أُقرِّر؟ تتركه لها حتى يُقرر هو أن يأتي لك؟

خلقَ الحملُ نور أسوأ طباعًا. جمالها الذي أعمى عين السيد عن سوء طباعها، توارى خلْفَ الأقدام المنتفخة بفعل تورم الحمل، والنمَش الذي زاد بكَلَف الحمل، والهالات السوداء، والحاجبين اللذين لم تعُد تعتني بهما.

في تلك الفترة فكرّ السيد كل يوم في طلاقها. لم تكن هناك صلة تربطه بالأشياء الموجودة في بطنها، لا يعرف لماذا، لكنه شعَر بالانفصال عن كل الكيان الذي تمثِّله نور، وعن كل ما سينتج منها. لكنه نفض تلك الرغبة من ذهنه، وانغمس في العمل أكثر؛ الشركة أصبحت سلسلة شركات، والمصنع استحوذ على عدد من المصانع المجاورة، فبات إمبراطورية كبرى.

بات السيد مَلِكًا في سوق الأجهزة الكهربائية، وحَلْقة الوصل بين السوق وبين أي دول أجنبية تريد بيع منتجها في مصر. فكان السيد يقوم بتجميع المنتجات في مصانعه، وهذا يجعله يوفر المنتج بسعر أرخص من كل وكلاء المنتجات الأخرى.

تناسب تواجده مع العمال طرديًّا مع سوء معاملة نور؛ كلما أصبحت أسوأ، اقتربَ من العمّال أكثر. صار صديقًا للعمال، انغمس في مشاكلهم وحلّها، ساعدهم في حياتهم العائلية بالمِنح والسُّلف. تمسكه بالإقامة في منزله في القرية زاد من الأسطورة التي تكوّنت حول تواضعه وكرم أخلاقه، صار السيد محبوبًا، حبًّا تمنَّى أن لو صدر نصفه من نور، خصوصًا أنه يمنح نور أكثر مما يمنح كل هؤلاء العمال مجتمعين.

ولدت نور توأمين، فتَى وفتاة. اقترح السيد أن تكون الولادة قيصرية بتخدير كلي. طبيب النساء والولادة رفض؛ لأن التخدير مجازفة لا داعي لها، ربما سيكون التخدير نصفيًّا لتقليل ألم الولادة، لكن لا داعي للتخدير الكلي.

الكلمة خرجت من السيد دون أن يُعد لها مُسبقًا، فظل حتى خروج التوأمين من غرف العمليات يبحث في أركان عقله لماذا كانت فكرة التخدير الكلي تتكون في عقله. من أين وُلدت تلك الكلمات، وكيف نطقها بهذه السلاسة؟ لا سياق لقولها، لم يحضر مع نور أي زيارة للأطباء، لم يفهم الفارق بين البنج النصفي والكلي في حالات الولادة.

هناك شيء بداخله لا يستطيع السيد إمساكه دفعه لتلك الكلمة. يخبط السيد جدار الغرفة بيده علّه يفهم لماذا قال ما قال؟ لاحظ أهل نور شروده فجذبوه للحديث.

اقترح خال نور تسمية الولد كمال على اسم خال آخر لنور كان أصغر أخوالها وقريبًا منها في السن، فكانا أشبه بالأخوات والأصدقاء، والبنت صفية على اسم والدة السيد. ضحك الجميع للحل الوسط، لكن السيد انتفض. لم يذكُر أحدٌ قصة خال نور هذا سابقًا. شك السيد في نفسه، هل عنت نور خالها الصغير كل تلك المدة.

عقله يحاول فكَّ لغزٍ، والآن يُداهمه لغز جديد.. بدأ يتنفس بعد تلك الخاطرة، أيمكن أن يكون عاش في الجحيم كل السنوات الماضية بلا جدوى. وكمال ليس إلا خال زوجته؟!!

وفرّت نور عليه العناء وأكدّت له صدق شكوكه، رفضت بعنف تسمية الطفل كمال.

قالت أمها: نسمع قصصًا عن صراعات حدثت لأن الزوج أراد الولد على اسم أبيه، والزوجة أرادت أن يكون الاسم باختيارها. أما أن يبدأ شجار؛ لأن الزوجة لا تريد اسم خالها الذي تعلّقت به دائمًا، والزوج نفسه لم يعترض، فلم نرها من قبل.

السيد وافق، يريد أن يضغط على نور حتى النهاية، يريد لحظة الانفجار ليتخلَّص من ذلك العبء. خال نور تدخَّل ليسحب اقتراحه، ويقترح تسمية الولد والبنت على اسم والدي السيد. رفض السيد كذلك. قال: الولد سيكون اسمه السيد، والبنت صفيّة.

استهجنوا أن يكون السيد السيد عزت محروس، لكن نور وافقت فورًا. خاف خالها أن ينتهي الأمر بالطلاق فرضخ الجميع. موافقة نور العصرية على اسم السيد زاد حيرته، شيء غير منطقي يحدُث، خبط السيد رأسَه في جدار الغرفة، فشهقت أم نور، وتجمَّدت نور تنظر إليه دون أن تتكلم. حاول خال نور الإمساك بالسيد، فأبعد السيد يده، وانصرف خارج الغرفة وهو يقول: ابتعد يا كمال.

نشأ السيد الابن وصفية هادئين مطيعين. كانا لا ينفصلان، ولا يحبان الأب. لم يكن السيد يشعر بشيء تجاههما في بدايات عمرهما. كائنات تبكي وتمنعه من النوم، لم يرتبط بهما عاطفيًّا إلا حين اقتربا من عامهما الأول. حين بدآ يصبحان أكثر إنسانية.

لكن المشاعر التي تلامست لفترة عادت للافتراق من جديد. كلما بدأت ملامحهما في التكوُّن يكتشف السيد أنهما لا يُشبهانه، لا في صورتهما ولا في طبعهما؛ لهما طباع نور كلها، أما الشكل فليس لنور ولا له. لولا أنهما خرجا

من بطن نور لظن أنهما ليسا لها أيضًا. الجينات الملعونة تلاعبك يا سيد. منحتك شكلًا لا يُشبه أباك وأمك. وكذلك فعلت مع أولادك. أهدتك في الأولى، وصفعتك في الثانية.

انشغلت نور عنه بالتوأم، لا خير ولا شر، هكذا كان يريد السيد. الشركة التي تلد شركات خطفت السيد منهما، فباتا مسئولية نور بالكامل. لم تعترض نور؛ لأنها بطريقة ما تركتهما لمربية وفريق من المدرسين والمدربين. الدقائق التي كان يقضيها السيد معهما في البيت كان يلحظ عزوفهما عنه، حاول استمالتهما بالهدايا وبالفسح، لكن كانت نور قد منحتهما كل شيء.

بلغا ٦ سنوات، ومع كل يوم كانت الفجوة بينهما وبين السيد تتسع. جاءته صفية ذات مرة تبكي وتخبره بأنها تكرهُه، تكرهه من أعماق قلبها، وتريده أن يموت كما مات والد زميلتها؛ لأنها بالموت لن تراه مرة أخرى. فتح السيد فمه وعينه مشدوهًا بما حدث.

كوب الشاب الذي كان في يده سقط على بِنْطاله ولم يبالِ السيد بحرارته، النار في قلبه وعقله أشد حرارةً. ظن أن الأمر مجرد قدَر، أو أولاده لا يميلون إليه، لكن ماذا جنى في تلك اللحظة كي تنهمر دموع صفية، ماذا ارتكب في حقِّها وهو جالس بعيدًا عنها كي تتمنى موته.

اندفع لصفية يسألها، لم تجبه، أتته الإجابة من السيد الغاضب لأجل أخته: أجل نكرهك؛ لأنك كنت لا تريدنا من الأصل. ماما تُخبرنا بأنك لم تكن تريدها أن تُحضِرنا إلى الدنيا. كما أنك تضربها لو لم تضربنا هي على كل خطأ نرتكبه؛ تأتي مساءً وتضربها بقسوة؛ لأنها سامحتنا مرة ولهذا فهي مضطرة لضربنا. وأنت لا تحضر معنا التدريبات، ولا حفلات المدرسة. كل زملائنا يظنون أنك ميت.

جرى السيد لغرفة نور، أمسكها من شعرها وجرّها لغرفة الأطفال، يسألها بعصبية: أنا أفعل كل هذا؟ نطقت صفية: آه، ماذا تفعل أنت الآن؟ الآن رأيناك. تجمَّد السيد، شعر بأنه سقط في فخٍّ عميق، انفعاله أثبت روايات نور حوله، لا سبيل للتكفير الآن.

نظر في عين نور، لمح شبح ابتسامة تداريها دموع مصطنعة. لا يعرف السيد تفسيرًا لهذا الشر الذي كانت فيه نور، هل حوَّلها هو لذلك الوحش، أم كانت هي دائمًا كذلك؟! شيء خاطئ في الأمر بالكامل، سألهم السيد: متى ضربتها؟ متى رأيتماني أضربها؟

قال السيد الابن: أيام كثيرة نسمعها تصرخ ليلًا حين تغلقان الباب، وهي في

الصبح تخبرنا بأنك ضربتها؛ لأنها أنجبتنا. فَهم السيد سبب صراخ نور المبالغ فيه أثناء العلاقة الحميمة، لم يفهمه حينها، ولم يسأل، فكان يأتيها قضاءً للواجب، كي لا تتهمه بأنه لم يعُد له في النسوان، أو صار شاذًّا، ومنذ سنوات لم يقترب منها إلا وقد ابتلع قرصين من الفياجرا، نصف قرص لم يعد يحرِّك شيئًا، وقرص بات معتادًا لجسده، فأصبح يبلع قرصين دون اكتراث بما سيفعل ذلك بقلبه.

تركها السيد فاحتضنت الطفلين، ومضى السيد خارجًا. أدرك أنه خسر طفليه للأبد، ولا سبيل لإصلاح نور بعد الآن.

السبب هو ما يقتله، ماذا يحدث في نور، ماذا حدث؟

مرَّت السنوات ولم يجد إجابة، يحضر للبيت مساءً يأكل وينام ويذهب للعمل. أول يوم بعد الشجار شعر بالإحراج من نظرات طفليه فتعمَّد أن يأتي متأخرًا بعد نومهما، ويرحل قبل استيقاظهما. اليوم جرَّ الآخر، حتى اكتمل الأسبوع الأول. الأسبوع زاد الفجوة، ولا يعرف ماذا قالت نور للطفلين بعد الشجار، تراكمت الأسابيع فوق بعضها، ثم الشهور، والسنوات.

بدأت ملامح السيد تصبح غريبة على طفليه، وبدأ يفاجأ بشهادات نجاح أولاده عبر المراحل التعليمية سنةً تلو الأخرى. شعر السيد بأنه الكلمة الغريبة في جملة بيته، فانسحب تاركًا المكان لنور.

حملت نور للمرة الثانية. لم يكن حملًا متوقعًا، لكنه حدث. كان الأمر مثل فرصة ثانية للسيد أن ينزع من الحياة شيئًا، وأن يمدَّ له في عمق الكون جِذرًا واحدًا. شعر السيد طوال سنواته بأنه كالحشائش النامية على سطح الأرض، نفخة هواء ستقلعه في أي وقت. وإذا انقلع لن يجد من يكمل مسيرته، أو يحفظ سيرته.

في الحمل الثاني تواجد السيد في كل زيارة للطبيب، وفي كل لحظة تتعلق بالطفل. توسع الشركة جعله مشرفًا عامًّا على العديد من المديرين الأصغر. فأصبح وجوده في الشركة غير محوري على النقيض من أيام ولادة التوأم. وجوده مع الجنين الجديد أكَّد للسيد الابن وصفية أنهما كان حملًا غير مرغوب فيه. الأب الذي لم يرياه إلا بالمصادفة لسنوات، بات موجودًا في الشقة كل يوم. وبدأ يلين أمام طلب نور بالانتقال لمنزل جديد. الطلب الذي تلح عليه منذ سنوات، وافق السيد عليه وأخبرها بأنه ينتظر وجود شقة مناسبة في شارع عمر بن عبدالعزيز، كما طلبت نور. التوأم ظلّا يُلحان أن يعيشا في طنطا بعيدًا عن القرية؛ لأن زملاءهما يسخرون منهما حين يُحضرهما أتوبيس

المدرسة الدولية عبر الطريق الزراعي ويمر في طرق البلد الترابيّة. لكنهما يريان الآن المولود الجديد يحصل على ما ألحّا هما عليه، دون أن يطلب حتى. لم ينتقلا من القرية إلا بعد سنوات، لكنهما أصرّا أن المولود الجديد هو سبب موافقة السيد، وليس إلحاح نور عبر السنوات التالية.

احتضن السيد المولود الجديد، أحمد. لاعبه واعتنى به، إلا في تغيير الحفاض، لم يكن يطيق الرائحة. لكن المُربيّة رضا كانت تغيّره دون أن تتغير تعبيرات وجهها. سألها مرة عن ذلك فقالت إنها فقدت حاسة الشم منذ فترة. دور برد شديد جاء ورحل وأخذها معه.

كل حركة للسيد مع أحمد، كانت تبعده أكثر فأكثر عن التوأم. لكنه فقد المبالاة بذلك منذ زمن، فهما ابنا نور، أما أحمد فسيكون ابنه هو.

كان قربه من أبيه سببًا كافيًا ليكرهاه، لكن زادت الأسباب أنه بعد ولادته أُصيبت نور بارتفاع مزمن في ضغط الدم، وبدأت تتلقَّى له الأدوية. مع كل قرص كانت تشعر بأن أحمد هو السبب، وانتقل ذلك الشعور للتوأم، فكَرِهَا الطفل الصغير أكثر.

من الشباك رأى سيدةً تسقط حين رأت جثة زوجها مكفنًا. للمرة الثانية يرى السيد هذا السقوط. لم يكن كما تُصوِّره السينما. سقوط تدريجي يحني الشخص فيه ركبتيه أولًا ثم بهدوء يميل للأمام بجِذعِه ثم يسقط على جانبه. كان انتقالًا فوريًّا من الوقوف إلى الأرض. مغناطيس ضخم يجذب مسمارًا حديديًّا ضئيلًا. تشتاق الأرض لاستعادة ما نزعته يد الإله منها. المرة الأولى التي رأى فيها ذلك السقوط كانت قبل سنوات طويلة.

هكذا سقَطت نور أمام عربة نقل الأثاث. هرع لها السيد وأولاده، حاول السيد الابن وصفية إبعاده عنها، لكنه لم يبالِ بهما. لم ينتظر الإسعاف، حاول إفاقتها فلم تفِقْ، أخذها في سيارته والأبناء الثلاثة وانطلق لمستشفى خاص جديد في منطقة الاستاد. كشفت الفحوصات عن وجود ورم حميد في الفص الأمامي للمخ. الورم حميد، ينمو منذ سنين، لكن ارتفاع ضغط دمها جراء الولادة الأخيرة هو السبب.

نظر السيد الابن وصفية إلى أحمد نظرة لم يفهمها. أكمل الطبيب أن إجراء عملية في تلك المنطقة أمر شديد الخطورة، ولا داعي له ما دام الورم حميدًا. قال الطبيب: إن تأثير الورم قد يظهر في شكل تغيير ملحوظ في شخصيتها وسلوكها، لكنها لن تشكل خطرًا على أحد "ربما لا تلتزم بالقواعد الاجتماعية المعروفة، تسبب بعض الحرج في الأماكن العامة، لكن لا شيء أكثر، بعض العصبية على الأطفال، لكنها لن تصل لحد إيذائهم أو تهديد حياتهم".

قطعت نور الحديث تطالب بإجراء العملية. حاول الطبيب إثناءها عن المخاطرة، لكنها أصرَّت. ناقشها السيد أنهم سيستشيرون بعضًا من الأصدقاء ثم يقررون. أخبرتها صفية بأنها يمكن أن تذهب للطبيب النفسي الذي تذهب إليه صفية، وسوف يساعدها في التحكم في سلوكها دون اللجوء للعملية الجراحية.

ذهل السيد من اكتشاف أن صفية تذهب لطبيب نفسي. سألها: لماذا طبيب نفسي يا صفية؟ أنت ما زلتِ صغيرة. نظرت إليه بحدَّةٍ وقالت: أنت السبب، أنت أرسلتني إليه، والآن سترسل أمي له، والحق أنه يجب أن تكون أنت من يذهب إليه.

ابتسم السيد بمرارة، فوسط حُزنه على حال ابنته وزوجته، وحاله شخصيًّا،

فإنَّ كلام صفية يثبت وجهة نظر قديمة كوّنها أثناء الجامعة بأن الناس لا يذهبون للطبيب النفسي بحثًا عن علاج، بل عن شماعة. لا يرغبون في التفسير الحقيقي، بل مبرر يُعلّقون عليه سلوكهم.

لهذا يعتقد السيد أن أي طبيب نفسي مشهور هو شخص مخادع. المريض النفسي يجب أن يحترم طبيبه لكن يكرهه في الوقت نفسه؛ لأنه يواجهه بحقائق، يكشف له نفسه، يُظهر له مسئوليته عما حدث في حياته. لكن الصيحة الجديدة أنهم يدفعون للطبيب النفسي كي يمنحهم شعورًا جيدًا عن أنفسهم، ويلوم الأب الغائب والأم المستسلمة، حتى لو كان الأب حاضرًا والأم مقاتلة.

رفضت نور فكرة الطبيب النفسي وقالت إنها منذ سنوات تشعر بالاغتراب عن نفسها. التفتت إلى أولادها طالبةً منهم تركها مع أبيهم. غادروا فنظرت للسيد تطلب منه أن يوافقها على إجراء العملية. قالت: إنها باتت لا تعرف مَن هي؟ "ربما لن يُدرك الأولاد ذلك لأنهم أولادي، ولأنهم لم يروني قبل أن أصبح ما أنا عليه الآن. كلما ضربتهم هرولت للحمام لأبكي. كذبت عليهم بخصوص ضربك لي، ولا أعرف لماذا أفعل ذلك. كرِهت نفسي، كرهت الإنسانة التي أصبَحتُها، أريد أن أعود لنفسي الأولى".

تحت الإلحاح أُجريت العملية لنور، سأل السيدُ الطبيبَ هل ستكون العملية تحت التخدير الكلي، فأجابه الطبيب بالإثبات. للمرة الثانية تقفز الكلمة من لسان السيد. لكن هذه المرة فهم حين أجابه الطبيب بالإثبات فطلب أن يحضُر العملية. رفض الطبيب رفضًا قاطعًا، وابتسم وقال: لو كنت تريد سماع ما ستقوله في التخدير فتلك المرحلة تكون في غرفة الإفاقة بعد الخروج من العمليات.

ضحك الطبيب لأن الكثيرين يريدون تسجيل تلك اللحظة. سحب السيد كرسيًّا من الغرفة وجلس، الآن فهم، يريد التخدير الكلي كي يسمع ما تخفيه نور في عقلها. كان السيد بطريقة غير واعية يريد أن يُعطيها مَصْلَ الحقيقة كي تنطق، يريد استجوابها وفهم خبايا مخها لمرة في حياته.

في غرفة الإفاقة جلس السيد وأبناؤه حولها، يحاولون تمييز هذيانها. لم يلتقط أحد الكلمة لكن السيد فهمها، كمال. تنادي يا كمال، ثم تنادي الأولاد. يجيبون عليها فلا تلتفت إليهم، تستمر في ندائها. اقترب موعد مرور الأطباء فدخلت الممرضة لتخرج الزائرين.

قبّل السيد يدها وعينه معلَّقة بالكلمات التي تخرج من فمها، وقبَّل أبناؤها جبهتها وخرجوا. على باب غرفة الإفاقة وضَع السيد كلمات نور بجوار بعضها، أولادك يا كمال! يا كمال أولادك! تنطق نور الكلمات بشكل دائري يجعل الحروف متشابكة والكلمات تلف فلا ترى مبتدأ ولا خبرًا، لكن لا يحتاج السيد لتوضيح أكثر من ذلك.

خرجت نور من العملية حيَّة، لم تُصب بشلل في أي طرف، ولم تفقد قدرتها على الكلام. لكنها باتت تنسى الكثير، لا تتذكر تفاصيل معظم الأشياء ولا دائرة الأقارب، وغالبية الكلام. لم تعد عصبية، لكنها أصبحت تائهة. حساسة بشكل مفرط، تظن أن الكل يتهامس بها. تنسى قصةً حكاها لها السيد الابن، أو موضوعًا فضفضت فيه صفية بخصوصه، ولم تعد تذكر لماذا يميل لها التوأم أكثر من أبيهما، أو لماذا يميل أحمد لأبيه أكثر من التوأم.

وضعوا سوارًا حول يدها فيه اسْمُها وعنوانها وأرقام هواتفهم جميعًا. صفية هي التي أصرت على تلك الفكرة، رفض السيد الأب الفكرة، لكن مع إصراره على الرفض أصر التوأم على الفكرة ورضخت لهما نور. فقدت نور جزءًا من إرادتها، يسهل اقتيادها وتوجيهها.

غضبُ السيد تجاهها تحول لإشفاق، فكرهها أكثر. في أشد لحظة أراد أن يقتلَها صارت نور أشد ضعفًا من أي وقت مضى. صارت أضعف من الطفل الرضيع؛ تبكي إذا أغلق الباب بعنف لأنها تفسر ذلك بأنه غاضب منها، تبكي إذا رأته يضحك عبر الهاتف لأنه لا بد يسخر منها. لا تريد مقابلة أصدقاء أولادها لأنها ترى سخريتهم حين تنسى أسماءهم، أو تُحضِر لهم الشاي أكثر من ٣ مرات في نصف ساعة... اللحظة التي كان سينفجر فيها، التي يريد معرفة إجابات متى وكيف أصبح الأولاد أبناء كمال؟!!

لم يشك في نور إطلاقًا، وحتى لحظته هذه لا يُصدِّق ما سمع. متى خانته نور، لم تتصرف أبدًا بشكل مريب، لم تتأخر خارج البيت، لم يرَ منها شيئًا، أي شيء، يدل على الخيانة، فكيف هم أولاد كمال؟ أيمكن أن تكون لحظة واحدة أثناء الأيام التي قضاها مسافرًا في اليابان؟ لم يرد السيد منها سوى نفي ما يظن، سؤال وإجابة وسوف يُصدقها، ويلعن نفسه؛ لأنه شك في صدقها، لكن

حتى هذه الترضية البسيطة حرمته منها نور بمرضها وذاكرتها الضعيفة وحساسيتها المفرطة.

ستموت لو سألها السيد هذا السؤال بأي صيغة كانت.

تتابعت السنوات على الأسرة، السيد الابن صار أستاذًا في كلية التجارة، يقضي يومين في التدريس وباقي الأيام مع أبيه في الشركة. شرب الابن المهنة سريعًا، كان ذهنه متقدًا، والدراسة الأكاديمية ساعدته أن يتفوق على أبيه.

يراه السيد الأب وهو يجلس في مكتبه، فيبتسم. يقول في نفسه لو أن بعض الحب بيننا لكنت أسعد إنسان. من يتخيل ابنًا مجتهدًا في الدراسة، ويعيش في جلباب أبيه، ويطوّر ما بناه أبوه. فقط لو كانت العلاقة فيها القليل من الود! لكن الحياة لا تعطي كل شيء، تُنازع السيد الأب فكرة أنه ليس ابنه، لكنه يطردها سريعًا.

لا يمكن أن تكون نور خائنة، ولا يمكن أن يكون قد خُدع كل تلك السنوات.

صفية تخرجت في كلية الصيدلة، وتزوّجت وكيل نيابة من أصدقاء السيد الابن. تعيش حياة مستقرة ولها بنتان، تشبهان نور تمامًا، يحاول السيد البحث عن ملامحه فيهما فلا يجد له أثرًا. لكنه يحبهما لأن ملامح نور فقط التي تظهر فيهما، لا ملامح صفية ولا غيرها.

يحلم السيد برؤية كيف سيبدو أولاد أحمد، لولا الثانوية العامة لزوّجه. يريد تزويجه مبكرًا كي يرى ملامحه في الجيل القادم، يريد السيد أن يطمئن أنه ليس أثر قدم على شاطئ رملي تمحوها بقايا أول موجة. لكن أحمد رفض فكرة الزواج قطعًا، ما زلتُ طفلًا، هكذا يرد على أبيه.

استقل السيد الابن في شقة خاصة في شارع سعيد بجوار الكلية، وصفية سكنت في شارع بطرس بجوار المستشفى الأمريكي، وظل السيد الأب وأحمد ونور في شقة عمر بن عبدالعزيز.

في مرةٍ لن ينساها السيد انصرف فجرًا إثر تليفون يُخبره عن مشاكل تخص قطع الغيار لبعض المنتجات العالقة في الجمارك وعليه تخليصها بنفسه. الارتباك الذي أحدثته حركة السيد أثناء لبسه وتناوله إفطارًا سريعًا أقلقت نوم نور. ثم رن المنبه لتوقظ أحمد لموعد درسه، فقال إنه مستيقظ وسوف يقوم حالًا. أمسكت رأسها بسبب الصداع الذي صار رفيقها منذ إجراء العملية. المسكنات المعتادة لم تعد تُجدي معه، فتلجأ لمسكنات مخدِّرة مع فنجان للقهوة كي يزداد تأثير المسكن.

دخلت للمطبخ لتعد فنجان قهوة، الكهرباء المقطوعة منعتها من استخدام

ماكينة القهوة التي أحضرتها لها صفية. صوت التشغيل، فاستدارت لماكينة القهوة وضغطت عليها تنتظر فنجان قهوتها.

أخذت الفنجان، وتناولت القرص المسكن وتمددت على سريرها. شربت القهوة، نسيت السبب وراء القرص الموجود في يدها. لماذا كانت تريد أخذه، هل هو دواء الضغط أم علاج للصداع لم تذكُر. فوضعته جانبًا وقالت ستتصل بصفية بعد أن تستيقظ.

دخلت رضا إلى البيت في الرابعة ظهرًا، لم تعد الأسرة تحتاجها لتغيير حفاضات الأطفال، لكن ظلت نور تحتاجها بضع مرات أسبوعيًّا لتنظيف الشقة والتسوّق؛ البيت هادئ، وجدت أحمد نائمًا، ونور كذلك. دخلت لتبدأ في إعداد الطعام وضغطت على الإشعال الذاتي.

لم يمنحها الانفجار القدرة على استيعاب أن العين مفتوحة بالفعل منذ ساعات. قوة الانفجار جذبت المارة. اتصل البعض بالمطافئ، وأخرج العديد طفايات الحريق المتراكمة في المحالِّ التجارية والسيارات التي يملكها السكان أسفل العمارة.

خمد الحريق سريعًا لكن تفحم المنزل بمن فيه. تقرير الطب الشرعي أثبت أن أحمد ونور ماتا من الاختناق بالغاز لا بالحريق. وأن حروق جسدهما خطيرة بسبب نومهما على الأسِرَّة وإحاطتهما بالمواد القطنية والقماشية التي ساعدت على اشتعال النار أسرع لمدة أطول.

الفحص الجنائي أثبت أن الحريق بدأ من شعلة البوتاجاز، ورغم أن رضا كانت بجوارها مباشرة إلا أن ارتطامها بالمطبخ وسقوطها على الأرض في مطبخ مليء بالرخام والألوميتال خفف من حدة اشتعال النيران. فكانت أدوات المطبخ التي سقطت عليها سببًا في حروق كبيرة، لكنها حفظت حياتها.

اتصل البواب بالسيد الأب والابن. واتصل السيد الابن بأخته. تقابلوا في مشرحة جامعة طنطا في شارع البحر لإنهاء تصاريح الدفن واستبعاد الشبهة الجنائية. الأب كان مذهولًا؛ أصابه حزنه بالخرس، لم يبكِ، ولم ينهَرْ، كان صامتًا، يمضي في الإجراءات بآلية دون أن ينطق أو ينظر للسيد الابن أو صفية. لكنهما كانا ينظران إليه، يبكيان ثم ينظران إليه.

أخبراه أنهما قرَّرا أن يكون الدفن في المقابر الجديدة التي اشتراها السيد الابن في مقابر المحافظة. استغرب الأب من معلومة أن ابنه اشترى مقبرة، فأخبره السيد بأنها وصية أمهما، أخبرتهما ذات مرة أنها كرهت القرية ولا تريد

أن تُدفن فيها. لم يُنصت لهما السيد وتجاهل الحوار كله، ذهب لمكتب الدفن ليدفع رسوم السيارة التي ستنقل نور وأحمد إلى القرية. وقف له السيد وصفية: لن تأخذها، تريد ابنك حبيبك خذه، لكن أمّنا لا.

عمال مصانع السيد الذين توافدوا أمام المشرحة تدخَّلوا لحل الأزمة. نصحوا الأبناء بطاعة الأب، فلم يجدوا من السيد أو صفية أي لينٍ. اتصلت صفية بزوجها تستعجله، وحين حضر اتخذ جانب صفية فورًا. تكلّم السيد لأول مرة، انكَب على يد ابنه يقبلها ويطلب منه أن يسمح له بأخذهما للقرية مع أهله، لا يريد من الدنيا إلا أن يكون أهله جميعًا في مكان واحد.

سحب السيد يده بقوة، وأعلن رفضه: "ابنك تمام، أمي لا". وفي حضرة زوج صفية انتهت الإجراءات فورًا بنقل نور وأحمد لمقابر المحافظة.

لم يحتمل السيد فكرة أن يُفرّق بين نور وابنها، أو يُشتت بينهما. يعلم أن والديه سيسامحانه لو لم يأتِ معهما، لكن أحمد لا بد أنه يحتاجه في وحشة العالم الآخر الذي ذهب إليه مبكرًا جدًّا دون أن تمنحه الحياة تمهيدًا. ركب الأب بجوار سائق عربة الإسعاف الكبيرة التي حملت الجثمانين معًا. نزعوا الكرسي الموجود بجوار السرير فبات هناك متَّسع لسرير إضافي رقد عليه أحمد.

تحت إلحاح الواقفين انصرف السيد الابن وصفية وزوجها ليكونا في استقبال الجثمانين.

انصرفت السيارات فالتف العمال حول السيد وأخبروه بأنهم سينفذون له ما يريد، حتى لو فيها سجنهم. نظر إليهم مشدوهًا، فلم يكن في حال يسمع بالحديث فضلًا عن تحدي توأمه. لكن العمال أحاطوا بسائق الإسعاف وحكوا له القصة. تعاطف السائق مع حُزن السيد، لكن شعور الأوراق النقدية التي دسّها العمال في يده كان سببًا أقوى لجعله يستجيب. لكي يُبعد نفسه عن المُساءلة دخل لمسئول المشرحة وأخبره بأن زوج المتوفاة وأبا المتوفى يريد تغيير مكان الدفن. بعد التأكد من قرابة السيد للاثنين سمح له المسئول بالتوجُّه حيث يريد السيد.

عادوا بالجثمانين للقرية لدفنهما بجوار عزت وصفية والأخ الأكبر والرضيع. العمال في شركة السيد حضروا الجنازة، وأخبروه بأنهم حجزوا العزاء في دار المناسبات بجوار المحافظة. لم يرد السيد، سار في الجنازة وجلس أمام القبر.

لم يتسابق لحمل النعش، بينما السيد الذي لحق بهما على مدخل القرية لم يتركه لحظة. حالان مختلفان للحُزن، يجتمعان في الحزن ويفترقان في التعبير عنه. كان وجه الأب جامدًا، والابن ممزعًا من البكاء. وصفية تتمنى أن لو كان هو وأحمد في القبر بدلًا من أمها. أما وكيل النيابة فكان منكَّس الرأس أمام عمال الشركة، وأقسم أنه سينتقم منهم جميعًا، فقد كان الأمر بالنسبة له ثأرًا شخصيًا لا علاقة له بكل هذا الموت الذي يملأ الأجواء.

وقف السيدان في مقدمة دار المناسبات لاستقبال المعزِّين كطرفي نقيض، يتعجب الابن من أبيه، ولا يرى الأب أي شيء. انتهى العزاء، وفرغت دار المناسبات. جلس الأب لا يتحرك، الابن وقف أمامه يدعوه للانصراف؛ لأن الناس يشاهدونه. لم يُجبه السيد، فجذبه الابن من ذراعه بقوة، رفع السيد رأسه لابنه، عينه تقول: إنه في عالم غير العالم، عالم لم تزل نور وأحمد حيَّيْنِ

فيه.

جذبه الابن بقوة أكبر فلم يتحرك السيد. انفعل السيد الابن وانفجر: الآن تدَّعي الحزن وأنت قتلتهما؟ لم تتأثر منذ لحظة سماعك للخبر، على الأقل ابكِ على ابنك حبيبك الذي خرجتَ به من الدنيا. اشتركت صفية في لحظة الغضب قائلةً: أنت من قتلتها حين وافقتها على إجراء الجراحة. كانت تريد أن تتحول لشخصية تحبها، لو أخبرتها أنك تحبها كما هي لما أجرتها.

استمر الاثنان في رشق السيد بالكلمات. لا يرد، ولا يجرؤ أحد على التدخل لإنهاء ما يحدُث. جذب السيد أباه من ذراعه بقوة أكبر، فنزعه من الكرسي لولا أنه استند على العمود المجاور لسقط على الأرض، وقف السيد هذه المرة، عينه في عين ابنه لا ترمش. رفع كفَّه وصفع الابن وانصرف.

شيَّعته دموع السيد المُهان، وقالت له صفية: هذه هي النهاية.

انتظر أهل نور وعائلة زوج صفية والمعارف جميعًا السيد الكبير ليعود للبيت القديم حيث تجمعوا لكنه لم يعُدْ. ولم يذهب لشقة شارع عمر كذلك. لم يكن السيد الصغير وزوج صفية مشغولين بعودته من عدمها، بل بضرورة تأديب العمال الذين عارضوهما، وغرسوا جثمان أمهم في تربة لم تُرد أن توضع فيها.

هدّأه السيد الابن وأخبره بأنه سيرد له اعتباره، وسينقل جثمان أمه في أقرب فرصة. صباح اليوم التالي ركب سيارته متوجِّهًا للمنطقة اللوجيستية بمنشأة الأوقاف. أخبرهم بأنه ذاهب ليبحث عن أبيه، فأول محل له كان هناك، حين اشترى بربع ثمن الأرض مساحة معقولة في المركز التجاري ليستغلها.

ظل السيد الكبير يتردد على ذلك المحل، فكان بالنسبة له الشاهد على كل شيء. بداية من مجرد مكان لبيع الأجهزة، ثم لتوكيل للعلامات الأجنبية، ثم علامة لمصانع السيد الخاصة. والأهم من كل هذا أن عشقه القديم موجود في هذا المحل تحديدًا.

دخلت خلود تخبره بأن الساعة قد اقتربت من الثامنة. نظر إليها السيد متسائلًا: ماذا تعني الثامنة؟ جلست على سرير خميس وقالت: موعد الانصراف. ابتسم السيد قائلًا: أخيرًا انتهت الليلة. هزت خلود رأسها قائلةً: العمل في المستشفى لا ينتهي. نعود للبيت ومعنا كل ما يحدث هنا.

تنهد السيد وأشار لها بكلتا يديه وهزَّ كتفه. يريد أن يقول لها لا أعرف كي أساعدك. ابتسمت خلود قائلة: لا تشغل بالك. هز رأسه قائلًا: حمَّام دافئ يُصلح كل شيء. اعتدلت في جلستها على السرير قائلةً: إن أول ما تفعله حين العودة هو الاستحمام. تريد التخلُّص من قرف المناوبة كلها. تريد أن تزيح عن عقلها كل هذا الموت والعرق. زفرت بحسرة قائلةً: لكن المياه لا تغسل عني إلا العرق. أما الموت فأشعر أنه قد صار تحت جلدي.

تجهَّم وجه السيد للحزن الذي علا وجهها. أراد أن يتكلم لكنها استمرت في الحديث قائلةً إنها أحيانًا تحك جسمها بأظافرها حتى تزيح الموت من تحتها. قالت وقد ابتسمت: مرةً أمسكت شفرة حلاقة زوجي وقررت أن أخرجه من جلدي بالقوة. جفل السيد فقالت خلود: لا تقلق، أنا أمامك الآن فلم أمت بالتأكيد. لكن بعد وفاة شخص أحبه ظننت أن الموت الذي أحمله تحت جلدي هو الذي أخذها. فأمسكت الشفرة وقررت أن أطعنه حتى يهرب من جسدي.

أسندت رأسها على الجدار وأكملت: طعنتُه في كتفي وفي بطني وفي فخِذي. في كل مكان أراه يهرب إليه. ونجحت أخيرًا في قتله. رأيته خرج مني وابتسم لي. لكنه احتضنني ورحل. كنت أراه طوال الوقت، لكن فجأة اختفى حين فتحت عيني. فرأيت زوجي وأهلي حولي في مستشفى يقولون لي أن أوحِّد الله وأحتسب الشهيدة عند الله.

دمعت عينا السيد فتوقفت خلود. قالت: دائمًا ما أسبب لك الغمَّ. مسح السيد دمعته نافيًا الأمر. شعاع الشمس انعكس على زجاج ساعة السيد فأصاب عين خلود. وجدتها فرصة مناسبة لتغيير الحديث. قالت: لم أركَ تخلع هذه الساعة منذ دخلت. والمرحوم قال إنه أراد البلاستر ليغطي عقاربها الفسفورية.

ابتسم السيد كأن قرموطًا في حركته ولسانه. تقدمت خلود على طرف سرير خميس بعيدًا عن الجدار قائلةً: ما قصتها فعلًا؟ هل لا تملك غيرها؟ ابتسم السيد وأخبرها بأنه يملك العديد من الساعات، لكنه قرر ألَّا يشتري

المزيد منها بعد موقف حدَث مع زوجته.

استطرد أنه لم يستطع أن يَفطمَ نفسه عن حب الساعات. فقرر أن يصبح وكيلًا لعلامة ساعات شهيرة لتعرض منتجاتها في محلّه. قالت: وكيلًا للساعات؟ من أنت يا عبدالعزيز؟

انتفض السيد. كل هذا الوقت وخلود لا تعرف اسمه، وربما لا تذكر أنه قال لها أو لواحدة منهن إنه السيد. غادر الفكرة سريعًا واستمر في كلامه. أنه وضع الساعات في قفص زجاجي لامع، وسط المحل لا على الوجهة الخارجية. وغيّر مكان مكتبه ليكون مقابل ذلك القفص. وعيّن لها حارسًا مخصوصًا من الأقصر.

يقوم كل بضع دقائق لينظر للساعات وينظفها. وحين يرى زبونًا يقترب من الصندوق يقوم بنفسه ليساعده في الشراء. يصرّ فرد الأمن أن يجلس هو ويتكفل بمساعدة الزبون، لكن السيد ينهره ممازحًا: لا تمارس صعيديتك عليَّ، ويُصر على أن يفعلها بنفسه.

أخبرها أن ذلك الصندوق هو محور دورانه. يدور ويدور لكنه يعود ليجلس قبالته ويرى الساعات الجديدة التي وردت، ويرتدي بعضها لعدة دقائق، ويسرد للزبائن مميزات كل ساعة وعيوبها كأنما يتحدث عن عروس طلب منه أحدهم رأيه فيها.

ابتسمت خلود وقامت من السرير. وضعت كيسًا بلاستيكيًّا بجوار السيد على السرير ثم توجهت نحو الباب فسألها السيد: هل أنت متعجلة على الانصراف؟ ضيّقت عينها قائلةً إنها سوف تستمر في العمل؛ لأن لجنة الوزارة ستأتي ولا بد أن يكون المستشفى بكامل قواه. سألها السيد ماذا قصدت إذن بموعد الانصراف؟ قالت: انصرافك.

دخل السيد الصغير المركز التجاري لكنه لم يقترب من المحل، واستمر في طريقه نحو فرع السجل المدني. في السجل المدني وقَف السيد أمام موظف بطلبٍ لتغيير اسمه. لم يعد يريد شيئًا يجمعه بالسيد عزت محروس، صاحب شركات صفية للأجهزة الكهربائية، الأب الفاشل والزوج القاتل.

سأله الموظف عن الاسم الذي يريده، انتَبه السيد أنه لم يختَرِ اسمًا، هو لا يريد أي اسم آخر، فقط أراد ألا يكون السيد. قال له الرجل مازحًا تبدو ياسر، ما رأيك ياسر؟ رد السيد رافضًا، قال: بل كمال.

كمال السيد عزت محروس، على اسم خال أمي. ابتسم الموظف قائلًا: كل من يرغب في تغيير اسمه يريد اسمًا عصريًّا، لكن أنت تنتقل من السيد لكمال، يبدو قديمًا. سكت السيد لحظة وقال للموظف: قُم بعملك، كمال وانتهى الأمر.

ارتدع الموظف، فهو يعلم أن زبائن فرع السجل في المنطقة اللوجيستية هم كبار البلد، فهم يدفعون ٤ أضعاف للحصول على نفس الخدمة المتاحة بداخل طنطا، لكنهم يأتون للمركز التجاري طلبًا للراحة والتكييف والمعاملة المميزة. بدأ الموظف في تنفيذ الإجراءات، بدا على السيد ندم بسيط، فقال للموظف دون مقدمات إن والدته أخبرته حين كان صغيرًا أنها اقترحت هذا الاسم ساعة ولادته؛ لأنه اسم خالها الذي كانت تحبه وتوفي صغيرًا لكن والده رفض.

انتبه الموظف وهو يُدخل بيانات البطاقة الشخصية القديمة من اسم السيد عزت، فسأله هل هو ابن رجل الأعمال المعروف، وصاحب توكيل صفية للأجهزة الكهربائية في الطُّرقة المقابلة. أجاب السيد بالنفي أولًا، ثم قال: نعم.

تغيّرت المعاملة، وانتفض الرجل من كرسيه يدعوه للجلوس، وأخبره بأنه سيشرف بنفسه على الورق حتى ينتهي بالكامل خلال دقائق، فأبوه الوحيد الذي يوفر تقسيطًا بدون فوائد لموظفي القطاع الخاص، وخصوصًا المركز التجاري.

وعده الموظف بأن الأمر لن يستغرق إلا نصف ساعة، وسيخرج ببطاقة وشهادة ميلاد وقيد عائلي وكافة المستندات التي يريدها باسمه الجديد. لم ينتبه السيد لكلام الموظف، فقد أدرك اسم التوكيل التجاري، صفيّة للأجهزة

الكهربائية. كانت صفية بالنسبة له هي صفية أخته، لكن بالتأكيد لم يطلق السيد الأب الاسم تيمنًا بها. فقرر هو الآن أن يغيّر اسم العلامة التجارية أيضًا، ليصبح نور للأجهزة الكهربائية.

***

مرَّ شهر ولم يظهر السيد، كمال يسكن في شقة صفية تحت إلحاحها. فعزوف كمال عن الزواج جعلها تشعر بالمسئولية تجاهه، فكانت ترسل له رضا لتنظِّف شقته وتعد له طعام الأسبوع، بعد أن تنتهي من شقة والدتهما. أما الآن، فصفية تفضل أن يكون معها حتى تنقشع الأزمة. أو يجدان بديلًا لرضا.

بعد شهر آخر طرق البواب باب شقة صفية واستأذنها في الحديث للدكتور السيد. لم يكن كمال قد حضر، فأخبرته صفية أن ينتظره ولا يناديه بهذا الاسم مرة أخرى، ويناديه دكتور كمال. انتظره البواب على السُّلم، ومجرد أن رآه أخبره عن مشترٍ يريد شقة شارع عمر. وسيدفع فيها مبلغًا مناسبًا؛ لأنه لا يعلم قصة الحريق، فلو أن لهما رغبة في البيع فيجب أن يتواجد لتوقيع العقد.

تعجب من كون المشتري لا يعلم عن الحريق وسأله: ألم يزرها؟ أجابه البواب أنه زارها لكن الشقة حاليًّا عروسة. لم يفهم كمال، فاستطرد البواب، أنه بعد انتهاء العزاء في دار المناسبات جاء السيد بيه وأعطاه مبلغًا من المال لتجديد الشقة، وأعطاه مبلغًا نظير إشرافه على التجديد.

سأله كمال: ألم يخبرك أين ذهب؟ أو متى سيعود لك؟ رد البواب بالنفي، وأكمل: بحثت عنه كثيرًا لأرد له صندوق الساعات لكن لم أجده. المهم حضرته أعطاني صورة العقد لأسلمها لك إذا رأيتك. فتح كمال العقد، فوجد الشقة باسم السيد السيد عزت. تفاجأ السيد من أن الشقة مكتوبة باسمه منذ اليوم الأول، لكن قطع البواب تفكيره قائلًا: للهروب من التعنت الحكومي سنُكمل الإجراءات ببطاقتك القديمة بالاسم القديم، وهناك محامٍ سيُنهي الإجراءات لنا مقابل ألفَيْ جنيه.

وقَّع السيد العقد وقبض ٤ ملايين جنيه ثمنًا للشقة، بعد المشاورة مع صفية وزوجها. ذهب للشركة يبحث عن أبيه كي يعطيها له فلم يجده، حاول التقصي حوله فلم يفلح، لم يجده في منزل القرية، ولا في أي فرع من فروع الشركة.

زوج صفية استعلم في المستشفيات وأقسام الشرطة فلم يجده. لم يذهب كمال للشركة طوال الشهرين الماضيين ظنًّا أن أباه سيكون هناك، ولم يرد مواجهته بعد ما حدَث. لكن الآن أصبح عليه التواجد في الشركة بصفة

مستمرة لتدارك ما فاته منها.

لم يعرف كيف استمرت في العمل الشهرين الماضيين دون رئيس مجلس الإدارة. لكن كانت المنظومة التي وضعها السيد كفيلة بتشغيل نفسها مثل عقارب الساعة دون تأخير، والتوقيع باسمه كان يقوم به المستشار القانوني حين يلزم الأمر.

أدار كمال الشركة بعد أن أخذ إجازة طويلة من الجامعة، بضعة أشهر مرت دون أن يظهر السيد، أو يتساءل كمال.

في عيد العمال تُقيم الشركة احتفالية لتكريم العامل المثالي، وتقديم هدايا عمرة لمن اقتربوا من سن المعاش، وطقوس أخرى سنَّها السيد. رأى كمال في تلك الطقوس تكاليف إضافية على الشركة، لكن الأوان قد فات لإلغائها هذا العام.

في الاحتفالية بينما كمال على المنصة لمح مجموعة من العمال في الصف الرابع جهة اليمين، كانت وجوههم مألوفة، ذاكرته الحاضرة أسعفته بأنهم من كانوا واقفين أمام المشرحة، ولا بد أنهم مَن ساعدوا السيد على نقل الجثمانين للقرية بدلًا من مقابر المحافظة.

بعد الاحتفال مباشرة، استدعى السيد المستشار القانوني للشركة، وأظهر له صورة التقطها بهاتفه لتلك المجموعة وطلب منه فصلهم. عارضه المستشار لأسباب تتعلق بقوانين العمل الرسمية وسياسة الشركة التي وضعها السيد بيه. احتد كمال حين سمع الاسم قائلًا: السيد ليس هنا، كمال بيه هو الذي هنا، ويجب أن تطيع الأوامر.

خرج المستشار منفعلًا. توقّع كمال أنه سيعود باستقالته، لكنه عاد بقرار فصل الموظفين، أخبره المستشار بأن التوقيع لا بد أن يكون من رئيس مجلس الإدارة شخصيًّا. أخبره كمال بأنه سيوقِّع مكانه، فلم يمانع المستشار، لكن لم يرتح كمال لهذه الموافقة السريعة.

بعد يومين فوجئ كمال بموظف من المفصولين يحضُر لمكتب كمال يخبره بأن قرار الفصل مُزوَّر، فالسيد بيه ليس موجودًا، وحضرتك ابنه لكن لا سلطة لك على قرارات الفصل، ولم يصدر أي قرار بتعيينك نائبًا له. أدرك كمال أن هذا كلام المستشار القانوني. وأن الموظف مُحقٌّ، فكمال رغم أنه أدار الشركة طوال السنوات الماضية، لكنه كان ابن صاحب المكان لا أكثر، يُوقِّع باسم السيد الكبير لا باسمه. النقطة التي أثارها الموظف جعلت كمال يدرك أن الشركة مهددة بوضع غير قانوني، فمنصب رئيس مجلس الإدارة ليس

خاليًا ولا مشغولًا. والعداء الذي كوَّنه فجأة من العمال والمستشار القانوني يمكن أن ينقلب عليه.

زوج صفية نصح كمال بضرورة نزع ملكية الشركات من أبيه، وأن وضعه الحالي سيساعدهم في رفع قضية حجر مضمونة. الفجوة بين كمال وأبيه لم تُصبه بالحيرة، كان الأمر فكرة جيدة تضمن لهما كامل حقوقهما المالية من الرجل الذي أصابه الخبَل. وليضمنا حكمًا سريعًا بعيدًا عن إشكاليات الطب النفسي وتقارير الأطباء، نصحه بتوقيع عقود لبيوت مشبوهة، وبعض الصور المزيفة بحرفيةٍ لوالده. وغياب والدك عن الجلسة؛ لأنه لن يعلم عنها شيئًا ستجعل الحكم في الجلسة الأولى مضمونًا.

لكن مستشار الشركة القانوني علم بالقضية عبر موظف يعرفه في محكمة طنطا، وأخبر كمال أنه سيطعن بالتزوير على أي شيء يقدمه كمال، وسيطلب مطابقة التوقيعات بتوقيعات سابقة للسيد الكبير. بعد مداولات بين كمال وزوج صفية، وبعض خبراء القانون توصلوا للحل المناسب.

قضية لإثبات وفاة السيد، وما يترتب على الوفاة الاعتبارية من تقسيم التركة وحصول كمال على إدارة الشركات بشكل رسمي وقانوني.

بدأ زوج صفية في تحرير محاضر غياب بتواريخ قديمة تعود إلى ١٤ شهرًا مضت، منذ اليوم التالي لوفاة نور وأحمد. علاقاته سهلت جعلها جميعًا بتواريخ قديمة، وسهلت كذلك وجود رد على تلك المحاضر بأن كل محضر استدعى بحثًا عميقًا ومكثفًا من رجال المباحث لكن دون جدوى.

لكي يهرب كمال وزوج أخته من فقرة أنه لا بد من مرور ٤ سنوات على المفقود، على الأقل، كي تحكم المحكمة بوفاته. وضعوا اسمه على متن عبَّارة مسافرة للسعودية منذ عام، العبارة غرقت وأعلنت قوات الإنقاذ أنها لم تنجح في انتشال أي فرد ممن كانوا على متنها. فصار غياب السيد في ظروف يغلب عليها الهلاك فتقل المدة من ٤ سنوات لسنة واحدة على الأقل، وهو ما حدث في حالة السيد.

ولكي يضمنا حكمًا سريعًا دون معارضة تدخَّل زوج صفية باستدعاء غير رسمي للمستشار القانوني للشركة، ونصحه بأن يبقى بعيدًا عن الموضوع.

انشغل الجميع بالمرضى في الدور الأول، ووقفت الإدارة على البوابات تنتظر لجنة الوزارة. فتوقف الدخول والخروج للغرفة. تمدد السيد على السرير. أغمض عينه بقوة. بضع ثوان وقام منفعلًا. أخذ الملاءة التي كانت على سرير خميس ووضعها على زجاج الشباك حتى أظلمت الغرفة تقريبًا. تمدد على السرير ومدّ يديّه بجواره. أغلق عينه كالمرة السابقة، لكنه قام منفعلًا كذلك. ضغط على الباب كي يغلقه بإحكام. وضع قطعة من القطن في ثقب المفتاح كي يغتال الشعاع النافد منه.

عاد للسرير وتمدَّد، أغلق عينه بهدوء وأرخى يديه بجواره، تنهَّد بضع مرات ثم سكن. بدأت ملامحه تهدأ ووجهه يسكن. فالروح التي تسكنه الآن ليست روحه القلقة، بل الروح التي عثر عليها في المقابر يوم جلس أمام قبر عائلته.

حين خرج من عند الطبيب بعد العزاء لم يدرِ ما يفعل. قرر أخيرًا أن يواجه نور بما يدور في عقله. أن يضع أمامها شكوكه التي لا يستطيع الطب إنكارها أو إثباتها. المعضلة أنها ميّتة الآن، وسرادق العزاء يؤكد ذلك. يفكر السيد أن اختبارًا وحيدًا يمكنه أن يجيب عن سؤاله، لكن هل يجازف بطلبه من السيد وصفية؟ يكرهانه بما يكفي، لن ينصاعا لطلبه من الأصل، وماذا لو وافقا؟ وأثبت الاختبار أنهما طفلاه، هل سيغفران له شكّه في نسبهما له وفي شرف أمهما؟ لن يغفرا.

وماذا لو قال الاختبار أنهما ليسا له، بل هما ابنا كمال الذي لم يره ولا مرة، لكنه ظلّ شبحًا يكدر حياته. كدَّر رضيعًا لم يعاصر طفولته، وكدَّر آخر لم يَرَ شبابه وشيخوخته.

ماذا لو لم يكونا لي يا نور؟ ماذا تفيد المعرفة الآن؟ هل سأهدم حياتهما أمام الجميع وأقول إنهما ابنا حرام؟ لا أعرف يا نور.

أحمد معكِ، العزاء الوحيد لي في الحياة فارقني. ربما لو كان حيًّا لطلبت الاختبار دون أن أبالي بالتوأم، فهناك ابني الذي يجب أن أحفظ له حقه ممن ليسوا أبنائي. لكن حتى لو كان أحمد حيًّا، فأنت أمه أيضًا. هل سأطعن فيك أمامه؟ أنا لا أعرف يا نور، فات أوان المعرفة، لكن الشك ينتشر كالسرطان في مخِّي. صخرة مربوطة بقلبي أشعر بها في كل لحظة.

قادته قدماه لقبر نور كأنما يحاول استجماع شجاعته ليفاتحها في أفكاره. استند السيد للقبر المقابل لقبرهما. حين ابتعد عن القبر اتسعت رؤياه فأدرك

وجود أبيه وأمه في القبر أيضًا. وجّه إليهما كلامه: أحتاج حضنك الآن يا أمي. ما رأيك فيما سمعتَ يا أبي؟ ردّا عليَّ ما أفعل؟ لقد بنيتُ بيتًا جديدًا، وأسست شركة ضخمة، وأرصدتي بالملايين، لكن قلبي فارغ يا أمي.

لا أعرف من أضع فيه ومن أنزع عنه. كتفي صار ثقيلًا، أحمل عليه عبئًا لا أراه لكن أشعر به. كأني أحمل السماء على رأسي، أشعر بثقل كل ما فيها وأنا أمشي. أتحرك كأني أمشي في سائل لزج كثيف القوام. أدفع جسدي كي يتحرك لكن كل التفاصيل تكاثفت فصار الهواء جدارًا من الصخر.

دموعه لا تتوقف، دموع حبسها منذ وفاة أمه، ثم في وفاة أبيه، وابتلعها مِرارًا في حياته مع نور، وفي موتها وموت أحمد. انفجرت الدموع كأنما تحولت دماؤه لدموع تدفعها دقات القلب فلا تتوقف عن الخروج.

مع كل قطرة دمع تخرج كان السيد يسكن قليلًا، ينخفض صوت نهنهته، وترتخي عضلات جسمه، وتصبح أنفاسه أعمق. الدمع يريح، والمواجهة ولو مع ميت مريحة. راح السيد في النوم مستندًا على القبر المقابل لقبر عائلته.

في نومه رأى العائلة مجتمعة في وسط دارهم القديمة. تحتهم حصيرة وردية اللون. أبوه وأمه متجاوران، ثم نور وأحمد يجلسان بعيدًا قليلًا. بين الطرفين كان السيد ممدًا. رأسه في حِجْر والدته، ويدها في شعره تمارس عادتها في تفليةِ رأسه لإخراج القمل منه إن وُجِد، وذرات الغبار الصغيرة التي تتراكم على جذور شعر السيد.

يضم السيد ركبتيه إلى صدره، وظهره لأبيه، وعينه تنظر لنور وأحمد. كانت وجوههم أوضح مما كانت في الحياة. كان السيد يدقِّق في وجوههم فهو يدرك في حلمه أنهم أموات.

التفت لأبيه فوجده يراقب أحمد. قال له أبوه: أحمد يشبه جدك محروس. قاطعته صفية قائلةً: وزوجتك يا سيد وجهها مريح، وبنت حلال. اقتربت نور من حماتها لتقلص المسافة بينهما، واستندت بذراعها على كتف السيد، أما أحمد فقام ليشرب من الطلمبة الموجودة في وسط الدار.

دار حديث بين الأم والزوجة لا يتذكر السيد تفاصيله، لكنه يتذكر أنه أراح قلبه. فجأة التفت السيد لأمه كأنما تذكر شيئًا فقال معاتبًا: ولا مرة أتيتِ لي، ولا مرة يا أمي، ثم التفت لأبيه قائلًا: وأنت كذلك لم تأتني ولا مرة. ضحكت صفية وهمت بالرد، لكن السيد فتح عينه فجأة.

كلب يطارد حيوانًا ما قفز من فوق رِجْل السيد الممددة فأيقظه. خبط الأرض ورزعِ رأسه في القبر المستند عليه، لكن شعوره بأن قلبه سكن،

وروحه اطمأنت، وأن جسده توقف عن الهرولة أخيرًا، كل ذلك جعله ينسى ما أيقظه ويفكر في منامه.

علم أن ما يفصله عن القاطنين خلف جدار القبر ليس إلا وهمًا، هم يرونه وهو يراهم، فقط عليه أن ينظر جيدًا نحو الداخل. استمر أمام القبر يومًا بعد الآخر كي يتحدث معهم حين يغفو. لا يتحرك إلا يوم الجمعة حين يأتي الرجال بعد صلاة الجمعة، والنساء صباحًا، لزيارة المقابر.

لم يزُر السيد الابن ولا صفية القبر من بعد الدفن. بين الصبارتين القائمتين خلف القبر يجلس السيد. ينام مكانه أحيانًا، ويتمدد على مصطبة مبنية أمام قبر بعيد بشارعين عن قبر عائلته، ثم يعود للقبر في الصباح. وفي عيد الفطر والأضحى، يبتعد عن المقابر تمامًا ويجلس وسط الأرض الزراعية. يمنح الفلاحين أنفسهم راحة من عناء الحياة أيام العيد، ويُكثرون من وجودهم في واحة الأموات. لكنهم يقلقون راحة السيد ويضطرونه للاختباء بعيدًا؛ خوفًا من أن يعرفه أحد منهم.

أمام المقابر يوجد محجر كبير للرمل والزلط ومواد البناء، كلما ضاق السيد بالظلام تسحّب حتى يجلس مستندًا لجداره. حفيف حركة السيد مثلت رعبًا للخفير الذي ينام في المحجر ليحرسه ليلًا. يرى الخفير علامات التغوُّط في مكان، ثم يسمع صوت الطلمبة على مقدمة المحجر ليلًا. ومنذ شهور كان زوَّار المقابر معتادين على ترك أكياس الرحمة على الكنبة أمامه ليأكل منها، ويأخذ منها الفقراء الذين لم يكونوا في المقابر وقت توزيعها أيام الجُمع والخميس. كل أسبوع تختفي الأكياس كلها دفعة واحدة.

استعاذ الخفير بالله من العفاريت والجن، وقرر أن يتربص بالطلمبة ليكتشف ما يحدث. أمسك بالسيد في الليلة الأولى لتربُّصه. كان منظر السيد مرعبًا؛ لحية طويلة وشعر أصفر، لكنه بهت لسوء التغذية ولبياض الشيب. جسد قويٌّ لكنه هزيل ذابل. ملابس تبدو كبدلة أنيقة لكنها ممزقة ويكسوها التراب. والرائحة التي تغلف هذا الكائن نتنة.

حاول السيد التملُّص من الخفير ونجح، لكنه تعثر في حجر فسقط على رأسه فانجرحت جبهته. اقترب منه الخفير يطلب منه ألا يؤذيه ولن يؤذيه.

أسنده الخفير حتى وصلا إلى غرفته، بها سرير صغير وشبه دش للاستحمام وتلفزيون وشعلة بوتاجاز. وضع الرجل السيد تحت المياه مباشرة بملابسه كلها، فكانت المياه تنزل بيضاء على رأس السيد وتصبح سوداء كمياه المجاري حين تنزل عند قدمه.

أعطاه الخفير منشفة وجلبابًا وتركه ليُغيِّر ملابسه. غيَّر السيد، ثم نادى للخفير. لسانه كان ثقيلًا كترسٍ لم يُستخدم منذ فترة طويلة. صنع الخفير كوبين من الشاي بعد أن قدَّم بعض الطماطم والخيار والخبز للسيد، فالتهمهم السيد.

قال له الخفير إنه بسبب أكله لأكياس الرحمة بات يُضطر لإحضار طعام من البيت كل يوم. واتهمه المجاذيب الذين يعيشون على أكياس الرحمة بأنه يأخذها ليأكلها هو وعائلته. أو يفتحها ويعيد تجميع مكوناتها على بعضها ثم يبيعها في السوق لأي أحد.

اعتذر له السيد وقال إنه لا يملك أي شيء ليعوضه به. ابتسم الخفير وقال: ساعتك تقول عكس ذلك. نظر السيد لساعته كأنما يراها لأول مرة. اعتادها في يده حتى نسي أنها موجودة. خلعها فوجد جلده أسفل منها مهترئاً من طول ارتدائها. حين رأى الخفير منظر رسغ السيد تراجع عن طلبه، وقال إنه كان يمزح، هو لا يريد منه شيئًا، الأكياس أكياس الله، وطالما قدّر له أن يأكلها هو فهو أولى بها.

سأله الخفير عن حكايته، فلم يُجِبِ السيد. حمل بدلته وانصرف هاربًا للمقابر مرة أخرى. لم يبالِ الخفير به، فرغم أن فُضوله كان يقتله ليعرف ما يحدث، فإن الخفير تمدَّد على سريره لأول مرة منذ عام وشهر ونصف أخيرًا هادئًا مطمئنًّا أنه ما عفريت إلا بني آدم. بعد يومين وجد جلبابه مُعلقًا على باب الغرفة، فأخذه ولم ينشغل بالبحث عن السيد.

بعد بضعة أسابيع وجد السيد يطرق بابه، يطلب منه بلسان ثقيل أن يختبئ عنده؛ لأنها ليلة الخميس الكبير لأحد الموتى والناس تملأ المقابر ولا يريد لأحد أن يراه. سمح له الخفير بالدخول، وسأله عن المقبرة التي يزورها السيد أو يقيم أمامها. أجابه السيد عن مكانها. السيد القديم لم يكن ليفعل، فالخفير يتذاكى عليه ويسأله بصورة غير مباشرة عن قصته.

لكن نقص الغذاء ونكبات الدهر أفقدت السيد حس التحدي، فأجابه. فهم الخفير كل القصة من معرفة المقبرة. وقال للسيد إنه سمع أن أولاده سيرفعون عليه قضية. انتبه السيد للكلام مستزيدًا، فقال الخفير: لا أعرف قضية حَجْر، أو قضية اختلاسٍ، شيء مثل هذا.

تعجَّب السيد من كلامه، فوعده الخفير أن يسأل ابن أخيه المحامي عن تفاصيل القضية ويخبره في الليلة القادمة. في الليلة القادمة كان السيد مُتلهفًا يجلس على باب الغرفة ينتظر الخفير بعد انصراف عمَّال المَحْجر.

أخبره الخفير أن المحامي ابن أخيه يقول: إنها قضية لإثبات وفاة الغائب في ظروف يغلب عليها الهلاك. قال الخفير الجملة بصورة سريعة ومتلاحقة كأنما جاهد كثيرًا ليحفظ كل هذه الكلمات الفصحى، ولا يبدو أنه يفهم معناها كثيرًا.

لهذا فسَّرها لنفسه في صورة أنه يفسرها للسيد إنهم يرفعون قضية لإثبات أنك مت حيث إنك كنت على عبَّارة متجهة للسعودية وغرقت ولم ينتشلوا كل الجثث التي كانت عليها. وقضيتك مشهورة في التلفزيون، وسيكون موعدها بعد أسبوعين.

تطوَّع الخفير وقال للسيد: لكني أخبرت المحامي ابن أخي أني أراك، وأنت حي ترزق. لم يصدقني الولد لكنه قال: لو كنت أنت حيًّا فمجرد رسالة منك لأي أحدٍ، أو ظهورك في المحكمة سيُنهِي القضيةَ.

لا يعرف السيد ما يقول، فقام منصرفًا من الغرفة لخارجها. ثم عاد للمقبرة ليستشير نور وأحمد. بعد أسبوع عاد للخفير يسأله عن مكان المحكمة التي ستنظر القضية وموعد الجلسة. أخبره الخفير مما سمعه في الأخبار وقال: أعطني البدلة أغسلها لك، وأخيّط ما بها من ثقوب، كي تكون مناسبة للمحكمة، ويصدقوا أنك لست مجنونًا. باستسلام خلع السيد البدلة وارتدى الجلباب طوال الأسبوع التالي.

سأله الخفير -وهو يعيد إليه بدلته في صباح يوم القضية- هل ستخبرهم بأنك حي؟ أجاب السيد أنه لا يعرف، سوف يذهب للمحكمة ويعرف هناك.

بوق سيارة كاد يصم أذن السيد. أفاق لنفسه من ذكرياته عن الأوبرا، ورفع يده عن مكان لدغَةِ نور. وجد نفسه واقفًا على رأس شارع جانبي والسيارات متراكمة تريد الخروج منه. مشى السيد خطوتين للأمام، ثم عاد ليراقِبَ سِرْب الراقصين المبتعِد. اختفى السرب عن نظره في نفس الشارع الذي دخلته الفتاة الأولى. مشى للأمام دون أن يلتفتَ عن الشارع الذي دخله شباب الجيل الجديد. فجأةً سمع صوت ارتطامٍ، ورأى العالم ينقلِب.

فتح عينه فوجد تجمُّعًا من الناس حوله، يريدون إيقاف تاكسي لحملِه لمستشفى الجامعة لكن لا يقبل أي تاكسي أن يتوقفَ. نظر إليهم لا يستوعب ما يحدُث، وكل ما يفعلونه أنهم يطمئنونه أنه بخير. مدَّ يده على عينه يبحث عن نظارته فلم يجدها، فناولها له أحد الواقفين قائلًا إنها لم يحدث لها شيء فقد طارت بعيدًا ولم تسقط عليها.

سألوه هل يعرف اسمه أو مكانه أو تاريخ اليوم؟ تعجَّب السيد من كل هذه الأسئلة فسألهم: ماذا حدث؟ أجابته سيدة بين الواقفين: منهم لله، طيَّار توصيل صدمك وجري.

من فجوة بين الجمع رأى السيد معرضًا للأجهزة الكهربائية تابعًا له. افتتح السيد هذا المعرض بنفسه، لكن الشعار الموجود عليه مختلف. انشغل السيد عن الناس ودقَّق ليقرأ الاسم "النور للأجهزة الكهربائية"، أدرك أنه سقط أمام فرع من فروع شركته في شارع البحر، وهو أيضًا أقرب فرع للمحكمة، فربما مرَّ عليه ابنه في طريق عودته.

لكنه لم يستطع الانصراف سريعًا، قبل أن يفهم ما حدث لـ"صفيّة للأجهزة الكهربائية". ارتدى السيد نظارته وتحامل للقيام، أسندوه حتى وقف، فقال لهم إنه بخير.

جادلوه أنه لا بد من الذهاب للمستشفى، لكنه أصرَّ على أنه بخير. لم يكن بحاجة للإصرار، فكلمته قد جعلت العديدين ينصرفون، والبقية الواقفة ارتاحت حين قال إنه لا يريد الذهاب؛ فقد رفع عن كاهلهم الشعور بالذنب وسيجعلهم ينصرفون وهم يمدحون وقوفهم بجانبه للنهاية واستعدادهم لتعطيل مشاغلهم والذهاب معه إلى الجامعة، لكن هو من رفض.

أحد الواقفين عرض على السيد أن يوصله حيث يريد بموتوسيكل. وأنه متوجِّه لسِبرباي في كل الأحوال، لم يرفض السيد هذا العرض ولم يقبله،

ففهم الرجل إحراج السيد فألحَّ عليه.

همَّ السيد برفع رجله اليمنى فوجد شيئًا يلدغ فخِذه. وضع يده في جيبه فوجد هاتفه قد تكسَّر ولا بد أن نثار الزجاج قد انغرس في جلده. خبط بيده مرتين على جيبه، حتى اختفى شعور الزجاج المنغرس في جلده. ونفض الهاتف في الشارع ليسقط ما تبقى من الزجاج المتكسِّر، ثم وضعه مرة أخرى في جيبه. على الموتوسيكل سأل السيد عن معرِض الأجهزة الكهربائية الذي سقط أمامه. أخبره بأنه مرَّ سابقًا من أمامه، لكن كان اسمه مختلفًا، ردّ عليه السائق بتنهِيدة تبعها قائلًا: إنه لا دايم إلا وجْه الله. لم تُرضِ الإجابة السيد، فسأله عما حدَث، فردّ السائق بأن ابن صاحب الشركات حين اختفى أبوه غيّر اسمه واسم التوكيل. انتفَض السيد حتى ارتجَّ الموتوسيكل، فنهَره السائق. اعتذر السيد بألمِ فخِذه. كان صوت البكاء واضحًا في كلام السيد، لكن السائق عزاه للألم.

صمت السيد طوال الطريق حتى وصل لموقف سِبرباي. أنزله السائق فشكره السيد. قبل أن يتحرك الموتوسيكل سأله السيد عن الاسم الجديد الذي اختاره ابن صاحب الشركات. أجاب السائق وهو يبتعد: يقولون إنه اختار اسم كمال.

كمال، الكلمة صدمت السيد. تهاوى ليجلس على الأرض، لكنه انتفض يريد الذهاب للمقابر كي يتشاجر مع نور. ركِب مواصلة لقرية أبعد من قريته كي لا يترك احتمالًا أن يركب مع أحدِ العواجيز الذين يعرفونه. نزل على المدخل الخلفي للقرية، وتوجّه للمقابر من وسط الأراضي الزراعية.

عاد فوجد الأهالي متجمِّعين حول المقابر. موظفو مجلس المدينة وعربات الأمن المركزي متراصَّة والأهالي ساخطون. ماذا فعل الموتى ليُغضبوا كل هؤلاء. اقترب وهو يعرج من الخفير. يراه السيد لأول مرة صباحًا. لولا البندقية القديمة التي يحتضنها دائمًا لما عرفه السيد.

سأله عما يحدث، فأخبره أن مجلس المدينة جاء لتنفيذ قرار بنقل جثث الأهالي والمقابر لخارج زمام القرية؛ لأن المنطقة التي تُقام عليها المقابر هناك أدلة أنها مقبرة منذ أيام الفراعنة، والأهالي كما ترى يرفضون؛ لأن المقابر هي أرضهم اشتروها بعقود رسمية، ويريدون على الأقل تعويضًا أو أن تسمح لهم الحكومة بنقل ذويهم بأنفسهم.

سأله السيد: أين سينقلون الجثث؟ أجابه الخفير أن مقابر القرية ومقابر القرية المقابلة في كفر الشيخ يقولون إنهم كانوا في نفس المنطقة أيام

الفراعنة؛ لذا سينقلون جثث القريتين لقرية ثالثة تقع على الحدود بين الغربية وكفر الشيخ لتخدم المنطقتين. صراخ النساء كان يرتفع كلما اقترب مشايخ القرية من قبر لإقناع أهله بأن النقل لا يُقلق أرواح الموتى، وأن علاقة الأرواح بالجسد قد انتهت. ضجر الضابط بهذه المناهدة فأطلق رصاصتين في الهواء.

وافق الأهالي بعد الرصاصتين، وشرعوا في فتح المقابر، بدلًا من أن تشق القوات الأبواب المعدنية بالصواريخ الكهربائية. لكن لم يرد أحد أن يبدأ بنقل عظام متوفَّاه أولًا، الكل سيقول: كنت سأقاوم لكن حين بدأ فلان انتهى الأمر. لا أحد يريد أن تُخلَّد سيرته باللعن لأنه أول من نقل عظام ذويه.

تقدم السيد نحو ضابط متوسط الطول، هندامه وصمته جعل الضابط يستمع إليه بهدوء. اقترح السيد أن يبدأوا بمقبرة عائلته، لكن بشرط أن يحمله البوكس الذي سينقل العظام إلى المقبرة الجديدة مع العظام. وافق الضابط وسأله عن المقبرة التابعة له فأشار إليها، فكلّف الجنود بنقلهم أولًا للمقابر الجديدة. وضعت القوات العظام في كيس أبيض كبير، اختلطت عظام العائلة كلها، لكنه يعلم على الأقل أن عائلته فيه. نُقلت العظام إلى المقابر.

ركب السيد متحاملًا على قدمه وجلس حتى فرغ العساكر بحضور المشايخ من وضع العظام، ثم اقترب من المقبرة وأسند ظهره لها ومدَّ قدميه. استمرت عملية نقل الجثث يومين متواصلين، لا ينام سكان القريتين الحدوديتين من الرعب، ولا تنطفئ أنوار المقابر حتى تستقر الأرواح الهائمة وتعرف الطرق وتشعبات مساكنها الجديدة.

السيد بات كشجرة نخيل في المقبرة، سكان قريته لم يزرهم الموت طوال شهور، أما القرية التابعة لكفر الشيخ فزارها الموت بضع مرات في الشهور اللاحقة. كانت مقابرهم في مُقدمة المقابر، فلم يحتاجوا للمشي كثيرًا في المقابر، فلم يروا السيد ولم يرهم.

أيام الجُمع كانت تصل إليه بعض النساء اللاتي ضللن عن مقابر أقاربهن، وحين يرونه كانوا يتهيبون وضع طعام أو أموال له بسبب هِندامه الذي لا يوحي بالفقر. لكن أسبوع بعد الآخر تغيّرت هيئته، ولم يقدر أحد على إنطاقه، وبدت علامات سوء التغذية تبدو عليه، فوضعوا له بعض الرحمات كالقُرَص والبرتقال والموز، وحين يعودون يجدون أقلَّ القليل من الطعام قد أكل وغالبيته كما هي.

كأنما يريد السيد تعذيب نفسه لإطالة حياته، لا هو يترك نفسه للجوع فيميته، ولا يأكل فيستريح من عذابه، أو أنه ملعون بالحياة، لا يصله الموت

بسبب دعوةٍ ما.

إكرامًا للمقبرة كان السيد لا يتحرك من أمامها إلا حين قضاء حاجته، فيذهب بعيدًا عن المقابر، قريبًا من الطريق السريع، حيث توجد طلمبة وبعض الزجاجات الفارغة كي ينظِّف نفسه بها.

دخلت إحدى العاملات، وهنأت السيد بالإفراج وهي تضع زجاجة المياه المعتادة. زجاجة بلاستيكية جار عليها الزمن مثلما جار على السيد الوسيم والممرضة ذات العيون الملونة. صُنعت لتُملأ بالمياه المَعدِنية، لكن العاملة تملؤها كل صباح من صنبور الحمام. جسد الزجاجة اصْفَرّ، وتضاريسها منقبضة ومنبعجة في الوقت ذاته ذكَّرت السيد بالدكتور أحمد.

اعتاد السيد على طعم المياه منها. حين شرب منها لأول مرة لم ينقبض منها لسوئها، بل لجودتها. كلما شرب يتذكر لحظة تجمع الأهالي لوضع طلمبة في المقابر الجديدة. الطلمبة القديمة بعيدة عن المقابر، وكل من يُريد سَقْي النباتات القائمة أمام قبر عائلته يضطر للسير مسافة طويلة. هرب السيد حين شعر بحركة غير اعتيادية في المقابر يوم الخميس ليلًا.

من مخبئه في حقل ذرة مجاور للمقابر سمِع أحد الموجودين يهمس للآخر بأن الحكومة منعت بناء مقابر جديدة؛ حفاظًا على الأرض الزراعية، ومنعت إضافة أي طلمبات دون تصاريح؛ حفاظًا على المياه الجوفية، وأنهم حين حاولوا الحصول على تصريح للطلمبة الحالية رفضت الجهات المختصة بحجة أن هناك طلمبة قائمة بالفعل على رأس المنطقة؛ لهذا قرروا زرعها ليلًا في ليلة الجمعة كي يكون أمامهم الوقت لبنائها، وحين تأتي الحكومة بعد الإجازة ربما تُقرر تركها بعد أن تصبح الطلمبة أمرًا واقعًا.

طمأن الكلام السيد بأن زَرْع الطلمبة لن يستغرق إلا ساعات وسيتركونه لوحدته. عاد السيد لقبر عائلته قبل أذان الفجر، كان الكل قد انصرفوا. مضى يوم ثم الثاني والسيد يهرب لحقل الذرة تحسُّبًا لمداهمة الشرطة للطلمبة، لكن لم يحدث شيء فلم يعد يذهب للحقل. خصوصًا أن سعاله بدأ يسبب له المطاردات داخل الحقول. كلما سعل سمعه صاحب حقل فظنّه مشردًا يسرق بعض الذرة فيلاحقه، أو يسبّه ويهدده بإخبار شيخ البلد.

أما في المقابر فالسعال لا يزعج الموتى، ويجعل الأحياء يبتعدون. لا يحاول أحد تقصي مصدر الصوت أبدًا، لو كان المكان مزدحمًا كليالي الجمعة والأعياد فلا يشك أحد أن المصدر ليس أحدهم، وفي الأيام العديدة التي تُهجر فيها المقابر لا يسمع أحد السعال، ولو تصادف مرور فلاح لريّ حقله فيضرب حماره بالعصا ليزيد من سرعته هربًا من "اللهم احفظنا".

يتحرك السيد ليشرب من الطلمبة القديمة يسبقه سعاله وآهاته من ألمِ

فخذه. فالطلمبة الجديدة لا تزال مياهها معكرة رغم مرور بضعة أشهر على غرسها. مياه سوداء اللون تخرج منها، كأنما وضعوا المواسير على عمق منخفض.

لم يبالِ أحد بلون المياه فهم يستخدمونها لري الزرع، أما السيد فيشرب منها. حاول إجبار نفسه على الشرب منها لكنه لم يستطع. جسده لم يعد قادرًا على السير نحو الطلمبة القديمة. خصوصًا مع انكسار لمبة عمود الطريق الموجود بجوارها، كسره مجموعة من الصِّبيان تراهنوا على كسره بمسدسات الخرز في عيد الفطر منذ شهرين، ولم يصلحه أحد.

المياه الجديدة الملوثة أفسدت مَعدته، فأراد أن يشرب مياهًا شبه نظيفة؛ فقرَّر أن يتحسَّس خُطاه نحو الطلمبة القديمة. أغرته بعض أنوار السيارات التي يركنها أصحابها أمام الطلمبة لتبريد محرك السيارة بمياهها.

يتقدم السيد في الظلام وهو يقبض على صدره بقوة كي يُوقف السعال، لكن دون فائدة. تمر سيارة بكشافاتها المضيئة فتعطيه لمحة خاطفة عن الخطوة التالية، سيارة تلو الأخرى، وخطوة بعد خطوة، وصل السيد إلى الطلمبة.

انكبَّ عليها بيده اليسرى ليحبس المياه في مقدمتها بينما يده اليمنى تضغط على ذراعها كي تخرج المياه؛ شرب وشرب، ثم رفع رأسه ليقتنص بعضًا من الهواء، ثم عاد ليشرب. كأنما يملأ مخزونه من المياه للشهور القادمة، فالطريق يصبح أصعب كل مرة.

شرِب السيد واستدار عائدًا نحو مخبئه. رفع قدمه ليعود فتعثَّر في ماسورة بلاستيكية مزروعة في حوض الطلمبة من الأسفل لتصريف مياه الحوض. سقط السيد على وجهه ولم يتوقف سعاله، شهقات النفس التي تزامنت مع السعال جعلته يبتلع قدرًا من التراب، فأصبح سعاله مكتومًا لكنه أقوى. صوت مبحوح لا يبدو هل يُطلقه صاحبه للاستغاثة أم للضحك أم بكاءً على ميت، لكنه صوت.

بصعوبة استطاع أن ينقلب على ظهره، بصَقَ التراب قدر استطاعته لكنه لم يستطع القيام، ولم يستطع الزحف كأن عظام الحوض التي تربط قدمه بجذعه قد انكسرت. جسده المنهك لم يساعده، وحالة الاختناق التي دخلها منذ ثوانٍ استنزفت البقية من مقاومته. لولا أن عظامه قوية بفعل الألعاب الرياضية لتحولت عظامه لعِصيٍّ خاوية وبصقها من فمه لشدة سعاله. ظل السيد راقدًا على ظهره، متطلعًا للسماء دون أن يراها، محاطًا بالهواء دون

أن يشعر به في رئته.

مرَّ وقت لا يعرف السيد قدره، لكن الضوء بدأ في اغتيال الليل. يبدو وقتًا قريبًا من الفجر لهدوئه وبرودة هوائه. قطع الهدوء صافرة سيارات إسعاف مُسرعة تأتي من بعيد. لم يرها السيد لكن الصوت طرق أذنه لوقت طويل قبل أن يلمحها تقف أمام الطلمبة.

ركنها المُسعف على جانب الطريق، بينما نزل زميله الآخر للطلمبة كي يغسل طبقًا من الطماطم والخيار. بجانب الطلمبة لمح الجثة الراقدة. لم يتحرك من مكانه ونادى على زميله أن يُسرع بالقدوم. هرول زميله إليه فوجدا رجلًا راقدًا على ظهره.

عينه الجاحظة للسماء أعطتهما الظن أنه مات. لكن صدره يعلو ويهبط بسرعة، فعلما أنه حي حتى الآن. نظرا لبعضهما؛ مُسعف طويل ذو شعر أبيض سأل زميله: ما الذي يجب فعله؟ هز الآخر كتفه بأنه لا يعرف. اقترح أحدهما أن يحملاه ويعودا به إلى طنطا، ثم يعودان لكفر الشيخ لجلب الحالة التي هما في طريقهما إليها الآن. استنكر الآخر تلك الفكرة، قائلًا ربما هناك مُصيبة خلفه، هل سنتحملها نحن؟ اتفقا أن يفتشا في جيوبه بحثًا عن أي معلومات أو هاتف أو رقم هاتف يتواصلان به، ثم يرحلان.

فتشاه فلم يجدا إلا ٣ جنيهات معدنية، وهاتف منقسم إلى قطعتين أو ثلاثة، وشريحة الخط يعلوها الصدأ. حاول أحدهما سحب الآخر للعودة نحو السيارة، وأخبره أن الصبح يطلع، وسيجده أحد الفلاحين صباحًا، ويمكننا أن نسحبه نحو الطريق كي يصبح عُرضة أكثر للمسافرين كي يروه.

رفض الآخر تلك الفكرة؛ لأنه لو رآهما أحد يُحرِّكانه ثم تركاه فسوف يشك فيهما أكثر. فجأة ارتفع سعال السيد، وبدأ صدره يرتجف أكثر فأكثر. قال أحد المسعفين: سنأخذه معنا لكفر الشيخ، نضعه أمام مستشفى الحميات دون أن نشغّل السارينة. وحين نبتعد نقوم بتشغيل السارينة فيخرج الأمن ليجده أمام البوابة. ونتوجه نحن للمستشفى العام لأخذ حالتنا، وهكذا نكون أنقذناه، ولم نكشف أنفسنا لا لزملائنا في طنطا ولا في كفر الشيخ.

اعترض المُسعف الثاني قائلًا بأن النهار سيكون قد طلع حين يصلان للحميات. وبها كاميرات بالتأكيد، وربما تكون البوابة مفتوحة، أو في مقابلها محل مفتوح أو صيدلية تعمل ٢٤ ساعة، فطمأنه زميله بأن الحميات بها تجديدات والكاميرات مزالة، وبوابة الاستقبال للمرضى تقع على الجهة الأخرى من البوابة المخصَّصة للإسعاف. كما أن كافة المحلات التي أمامها

قديمة ولا يوجد بها كاميرات مراقبة، وتفتح عند العاشرة صباحًا هذه الفترة؛ لأنه لا يوجد سحب عليها بسبب التجديدات.

اتفق الاثنان، ووضعا السيد في السيارة وانطلقا

يستند السيد على سور المستشفى يشاهد سيارات الإسعاف التي تهرول خلف بعضها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحالات التي أدى انقطاع الأكسجين عنها لتدهور حالتها. خلف سيارة تخرج بضع سيارات أخرى تلحق بها.

يشاهد السيد الأهالي المتراكمين في السيارات وهم يحاولون ألا يضيّعوا أثر سيارة الإسعاف التي تحمل قريبهم. يتذكر يوم أُلقى أمام المستشفى في صمت تامٍّ، لا سارينة إسعاف تُعلن عن قدومه، ولا خفير نظامي يفتح البوابة لاستقباله، ولا طبيب واثنين من التمريض يسألان المُسعف عن حالته وتفاصيله.

بل إن فني التحاليل الذي كان منصرفًا بسيارته من المناوبة الليلية، يفتح له الخفير البوابة فيجد إنسانًا أمامه؛ شعره به بقايا من اللون الأصفر لكن الأبيض الرمادي غزاه. جسده نحيل لكن به بقايا من طول وقوة. يجاهد أن يلتقط بعض ذرات من الهواء.

نزل الفني من سيارته ونادى التمريض ليأتوا بكرسي متحرك أو سرير. العاملة لمحت المشهد فأسرعت له بكرسي مكسور العجل، ومسند القدم مفقود يحل محلّه قطعة قماش. أجلسوه على الكرسي، وانحنت العاملة لترفع قدمه على القطع القماشية، فصرخ من الوجع. دخلوا به إلى الاستقبال مسرعين، فقالت سامية: استر يا رب.

نادى الفنيُّ الطبيبَ وأخبره عما حدث. طلب الطبيب أي إثبات للشخصية فلم يجدوا في جيبه شيئًا. سأل عن الأقارب فأخبروه أنهم وجدوه بمفرده. طلب الطبيب أشعة وتحاليل لتشخيص الحالة. الأشعة كشفت عن التهابات شديدة في الرئة، واحتمالية الإصابة بعدوى تنفسية محتملة، ويجب حجزه.

أشار طبيب الأشعة أن مَفصِل الفَخِذ فيه التهابات شديدة نتيجة شرخ قديم لم يُعالج. ونصح زميله طبيب الصدر بإراحة المريض، وفي كل الأحوال سيتلقى المضادات الحيوية ومضادات الالتهاب ضمن علاج الصدر.

"لا بطاقةَ لا حجزَ، هذه هي القواعد، وأنت تعرف يا محمد". قالها الطبيب بنبرة مُنكسرة. قال له محمد: لا تقلق، سأحضرها فورًا، فقط احجزه. بعد نصف ساعة عاد محمد الفني بصورة بطاقة مهترئة يبدو عليها التزوير، فالصورة مطموسة وبعض أرقام الرقم القومي اختفت بتآكل الورق. نظر الطبيب له، فقال محمد: أنت لست ضابط شرطة، أخبرهم أن المريض أخرج

لي هذه، فوضعتها في السجلات دون أن أطابق الاسم الذي قاله بالاسم الموجود في البطاقة، ليست مهمتك الكشف عن تزوير البطاقات.

بدأت إجراءات دخول عبدالعزيز أحمد رضوان. وحُجز في غرفة في الدور الثاني. ضَعف التغذية بادٍ عليه، فرُكبت له أنبوبة تغذية عبر الأنف، والعديد من المحاليل الوريدية.

بمجرد أن استعاد بعض طاقته ووعيه، نزع الأنبوب وبدأ يأكل عبر الفم. سألوه: من هو، فلم يجب.. واستأذنهم في سرير بجوار شباك؛ فهو يخشى أن يسقط من السرير، ومعتاد على النوم بجوار شباك به قضبان حديدية ليمسك بها.

طريقته المهذبة في الطلب جعلت الممرضة خلود تتوسط له عند رئيسة التمريض سامية لتنقله لغرفة خميس، خصوصًا أن خميس والسيد يعانيان من نفس المرض.

نظر السيد مرة أخرى لسيارات الإسعاف، يردد في عقله أنه الآن يرحل من المستشفى في ضوضاء هائلة لكن لا صوت واحد من تلك الضوضاء يصدر لأجله. لا أحد ينتظره على الجانب الآخر من المستشفى. ولن يعود لأولاده كما وعد الذبابة. هو الآن لم يَعُد يدري هل هم أولاده أم لا.

خبط السيد رأسه في سور المستشفى. تذكَّر حين صفع السيد في العزاء، قرر ألَّا يعود للبيت ويتمشى تجاه المطعم حيث قابل نور لأول مرة. تمشى قليلًا فلمح لافتة مُضاءة للمعمل الذي أجرى فيه التحاليل منذ سنوات. صعد إليه بخطوات بطيئة وسأل عن تحاليله.

ابتسم الموظف لأن التحاليل منذ أكثر من ٣٠ سنة، لكن نظرات الانكسار على وجه السيد جعلت موظف الاستقبال يعود لجديّته، وبحث عن التحاليل بالاسم. طبعها وسلَّمها للسيد.

حاول السيد اكتشاف ما فيها لكن عقله لم يكن معه بعد كل ما مرَّ به. أمام المعمل لمح عيادة طبيب ذكورة فدخل إليه. ابتسم الطبيب حين رأى تاريخ التحاليل واسم الطبيب الذي طلبها. قال للسيد بأن الطبيب المذكور سافر إلى ألمانيا منذ ٢٠ عامًا، ولا بد من إجراء تحاليل جديدة لتقييم الوضع الحالي. خصوصًا أن سن السيد حاليًّا اقترب من الستين، فلا بد أن كل شيء تغير.

لم يقاطع السيد الحديث، كان شاردًا، ولا يبدو أنه سمع كلام الطبيب. بعد أن اختفت الضوضاء التي سبَّبها صوت الطبيب اكتشف السيد أن الطبيب صامت، فنظر إليه يسأله بلهجة مباشرة: ماذا تقول التحاليل؟

نفض الطبيب عباءة الوعظ عن نفسه، ونظر للتحاليل بتمعُّن، وقال فيها خَللٌ بسيط في عدد الحيوانات المنوية، ونقص في الحيوانات المنوية الحية القادرة على تخصيب البويضات.

سأل السيد مقاطعًا: هل يمكن أن تحمل المرأة من رجل هذه تحاليله أم لا؟ رد الطبيب، ممكن لكنه احتمال ضعيف. سأل السيد وخبط على طاولة الطبيب: تحمل أم لا؟ كرر الطبيب نفس الرد، فانهمر السيد باكيًا: تحمل أم لا، تحمل أم لا؟ قام الطبيب من مكانه وجلس مقابل السيد، فقد أدرك السبب وراء نبش هذا العجوز في تحاليل منذ عقودٍ مضت.

قال الطبيب: كل شيء وارد، ويمكن أن تحدث المعجزات بلا تفسير طبي. يحاول الطبيب أن يريح العجوز المتشكك في نسب أولاده وبراءة زوجته. لكن كل كلمة كانت تزيد السيد اشتعالًا، يلوم نفسه على الشك بنور وأولاده، ويلوم نفسه؛ لأنه لا يستطيع إلا أن يشك. فلا شكلهم يشبهه، ولا طباعهم طبعه، ونور قالت: أولادك يا كمال وهي تفيق من التخدير.

لكن أحمد ابنه، هو متأكد من ذلك. ويقينه من بُنوة أحمد، يقطّع قلبه؛ لأنه دليل على صدق شكه في عدم بنوة التوأم، لكنه دليل أن بإمكانه الإنجاب حقًّا، فلماذا لا يكون التوأم له؟

صفع السيد ركبته فاستفاق على وجوده أمام سور المستشفى.. رأى جثة خميس ترحل مع أهله، تظلّهم قصة السيد التي ألَّفها لنهاية خميس.

فكر السيد أين سيرجع، لا يزور الناس المقابر إلا حين يداهمهم الموت، وأيام الجمع، ماذا لو مت يوم السبت؟ أسبوع كامل في العراء، إهانة في الحياة والموت. ثم كيف يضمن أنه سيُدفن مع أهله مثل خميس.

يجلس أمام المقبرة نعم، لكن الجدار يفصل بينهم. ولم يحصل على مفاتيح المقبرة ليدفنوه فيها حتى لو أوصى، ولمن يوصِي؟ وهل ستظل جثته متماسكة حتى يراه أحدهم ويعرف أن هذا فلان، وينفذ وصيته؟

تحركت السيارة بأهل خميس، والسيد يفكر لا يُريد سوى أن يكون مع أهله، صفية وعزت، نور وأحمد، وأخويه.

ظهرت أمامه خلود من العدم، طلب منها ورقة وقلمًا، أحضرتهما له. أخذ الورقة منها ثم ردها بعد أن دوّن فيها شيئًا ما، وأعطاها ساعته.

وجدت في الورقة خريطة تبدأ من طلمبة بجوار عمود نور على الطريق السريع في قرية بين كفر الشيخ والغربية، وتنتهي عند مقبرة أمامها شجرتا

صبار وبينهما فراغ. المقبرة التي تحمل رقم ٤٥ من الصف الثاني.

الاسم الحقيقي السيد عزت محروس. وجدت ٣ محاولات لكتابة رقم هاتف في كل مرة يكتب بضعة أرقام ويشطبها، وفي النهاية شطب الأرقام وكتب: التواصل مع السيد السيد عزت. ثم شطب السيد وكتب فوقها كمال. ثم شطب كمال بعنفٍ، وكتب السيد. لكن لم يعد للسيد وجود فشطب الاسم كاملًا، وكتب التواصل مع رئيس مجلس إدارة شركة صفيّة للأجهزة الكهربائية، ثم شطب كلمة "صفية" وكتب "نور". انفعل السيد لكثرة الشطب فكتب في ركن الورقة من جهة اليمين: ادفنوني هنا، وتواصلوا مع صاحب شركات نور.

لم تفهم خلود ماذا يريد السيد من وراء تلك الورقة، لكنه أصر أن تحتفظ بها. قائلًا لها: إذا لم يصدقوكِ فضَعي صورة الساعة مع هذه الورقة وانشريها على الإنترنت. سوف تجدين البلد كلها عندك.

لم تفهم خلود، لكن لجنة وزير الصحة قد حضرت لمعاينة كارثة نقص الأكسجين، لمحتهم خلود فقالت له: حاضر، ووضعت الورقة والساعة في جيب ملابسها، وهرولت لتنبِّه باقي زملائها، وصلت اللجنة ففُتحت لهم أبواب المستشفى.

لمحت خلود السيد يقوم من جوار السور، ثم يدخل للمستشفى مستغلًّا انشغال الجميع وأعينهم الموجهة للجنة شديدة النظافة وذات الرائحة الفوّاحة. قالت: ربما نسي شيئًا، ثم أفاقت على طلب رئيسة التمريض منها تعريف نفسها لنقيبة التمريض.

صَعد السيد إلى الغرفة التي كان فيها، وجد الغرفة مغلقة لتعقيمها. فلمح أمامه حمَّام شباكه حديدي متهالك. وضع قدمه على القاعدة الإفرنجية، ثم حاول الصعود للشباك، لكن ثني رُكبته ليلائم حجم الشباك الصغير أيقظَ ألمَ فخِذه. لكنه انشغل عن الألم حين رأى قوس قزح يلوح من خلف قضبان الشباك. الرذاذ المتبقِّى من مطر الليلة السابقة صنع للسيد قوس قزح. حاول أن يراه بوضوح، لكن القضبان كانت تقطع المشهد فتنزع من السيد شعورًا بالتحليق مع القوس. خرج من الحمام متحاملًا على ألمه، فقد شعر أنه صار قريبًا من القوس أكثر مما كان طوال حياته، وأن بإمكانه الصعود إليه الآن، فقط لو تحمل قدرًا بسيطًا من ألم جديد لمرة أخيرة.

تمَّت